بلال فضل

جُمهوريّة العبث

دار الشروق

جمهورية العبث

بلال فضل

دار الشروق

جُمهوريّة العبث

«عليك يا أخي الكريم أن تحرص على عدم قطع علاقتك اليومية والدائمة باشـتهاء الطيبات؛ لأن ذلك سبيلك الوحيد إلى تذكر أنك ما زلت حيًّا، حتى وإن كنـت حيًّا لا تُرزق بكل ما تتمناه أو بأي مما تتمناه. صدقني عندما تفقد قدرتك على الاشتهاء لن ينفعك في المسـتقبل القريب ببصلة أن صوتك كان عاليًا طول الوقت، أو أن موقفك كان دائمًا سـليمًا أو أنك كنت تحارب على الدوام المعركة الصح، فما فائدة أن ينتـصر الفريق الذي تحارب في صفوفه إذا اكتشـفت ـ في نهاية المطاف ـ أنك تحولت إلى جثة؟ لذلك أرجو أن تتذكر دائمًا أن اسـتمتاعك بالنـصر، إن جاء النصر، يتوقف أصلًا على بقائك حيًّا تشتهي وتُشتهى، فلا خير في نصرٍ يأتيك وقد فقدت قدرتك على الضحك والطرب والتذوق والنشـوة، وكل هذه أمور تفقد كفاءتك فيها مـع الخمول والانقطاع، فالعلم بالتعلم، والشهوة بالاشتهاء، والنشوة بالتنشّي، والعظمة لله والتناكة لقوم آخرين أنت تعلمهم».

بلال فضل


9 789770 933152

دار الشروق

www.shorouk.com

بلال فضل



تعددت الحكام والهمّ واحد

دار الشروق

جمهورية العبث

بلال فضل

تصميم الغلاف: وليد طاهر

الطبعة الأولى ٢٠١٥
الطبعة الثانية ٢٠١٥

تصنيف الكتاب: أدب ساخر

© دار الشروق

٨ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر - القاهرة - مصر
[illegible]
[illegible]

[illegible]
ISBN [illegible]

إلى يوم الجمعة
الثامن والعشرين من يناير
من سنة ٢٠١١..

المحتويات

أجدع من أي مقدمة

لقد كان فينا الظلم فوضى فهُذِّبَت　　حـواشيهِ حتى بات ظُلمًا مُنظَّمًا
عَمِـلتُمْ عـلى عِـزِّ الجمـاد وذُلِّنـا　　فـأغليتُمُ طينًـا وأرخصتُـمُ دمـا
إذا أَخْصَبَت أرض وأجدبَ أهلُها　　فلا أَطْلَعَتْ نبتًا ولا جادها السما

شاعر النيل حافظ إبراهيم، يناير ١٩٠٧

«أعرف شيئين في غاية البساطة، أما الباقي فلا أهمية له: الأول هو أن العالم الذي نعيش فيه تحكمه عصبة نبيلة من الأنذال التي لطخت الأرض، الثاني أنه يجب ألا نأخذ الأمر على محمل الجد؛ لأن هذا هو ما يرغبون فيه».

الكاتب المصري ألبير قصيري من رائعته

«العنف والسخرية» ـ صدرت عام ١٩٦٢

رسالة من إبليس تحت قصف الجمرات!

«.. بصراحة زادت المسائل عن كل حد، وأصبحت أكبر من قدرتي على التحمل.

أعرف أنه ليس من حقي أن أطلب منك شيئا؛ لأنني فقدت هذا الحق يوم أن قررت التمرد عليك، لكن سيظل من حقي أن أعترض وأشكو وأسخط حتى لو لم يكن لذلك أي جدوى، أعلم أن هذه الرسالة ستلاقي مصير الرسائل السابقة، ومع ذلك أكتبها ربما لأواجه نفسي بحقيقة مؤسفة هي أنني لا زلت بعد كل ما جرى مشغولا بك، وأنني لم أحقق بعدُ ما تمنيته، بألّا يكون كل ما أفعله مجرد رد فعل على طردك لي من جنتك.

منذ زمن بعيد توقفت عن التعامل مع ابتهاج عبادك في كل موسم حج برجمي بالحجارة والأحذية والبصقات؛ بوصفه إهانة شخصية تستحق الأسى والحسرة. كنت في البداية أتجرع مرارته كيوم كئيب سيعبر مثل غيره، حين يتوهم عبادك أنهم حققوا انتصارا عليَّ وعلى ذريتي، ليعود كل منهم إلى حيث أتى متصورا أنه تقرب لك على حسابي، ونال رضاك بعذابي، لكن لا بأس، سيكون لديَّ السنة بطولها لجعل عبادك يدفعون ثمن ذلك الغل غاليا.

نعم، كنت أفكر بهذه السذاجة؛ لأنني لم أكن قد عرفت الكثير عن تلك الكائنات الحقيرة التي فضلتها عليَّ، لكن ذلك تغير عندما بدأت مع مرور الوقت أعتاد ألم ذلك اليوم، وأصبحت لديَّ القدرة على النظر في وجوه أولئك القاذفين الباصقين اللاعنين، لأختار أكثرها غلّا لأتذكره؛ لعلي أبدأ بتصفية حسابي معه فيما بعد، وقد كان ذلك أفضل قرار اتخذته في حياتي، فقد رأيت حينها وجوها كنت أعرفها جيدا، ليس لأن بها شيئا مميزا يسر الناظرين، فأنا حتى الآن لا أفهم كيف تكون هذه أحسن صورة يمكن أن يكون عليها مخلوق من مخلوقاتك، لا زلت أعتبر طائر الكناري أو زهرة البنفسج أو ذكر القندس أو أنثى الخنفساء المرقَّطة أفضل وأجمل وأجدى ألف مرة، لكن ليس هذا موضوعنا الآن.

ماذا كنت أقول؟ آه، كنت أقول إنني مع أول مرة نظرت في وجوه المتحمسين لرجمي، رأيت وجوها أعرفها جيدا؛ لأن أصحابها فعلوا أمام عينيَّ أشياء أخجل أنا شخصيًا من التفكير فيها فضلا عن فعلها، دون حتى أن يمتلكوا شجاعة المواجهة والاعتراف بعصيانهم لك، كما فعلت أنا حين واجهت الجميع برفضي طاعتك، وتحملت ثمن ذلك بكامل إرادتي، أما هم، عبادك، فقد كانوا كلما تمت مواجهتهم بأفعالهم، سارعوا برمي «بلاهُم» عليَّ واتهامي أنني أنا الذي حرضتهم على خطاياهم، برغم أنني كنت أراقبهم مذهولا خلال قيامهم بها، متسائلا حينها كيف، ومن أين أتتهم هذه الأفكار الشنعاء؟ وأعترف أنني كنت دائما أجد نفسي عندها أفكر فيك، سائلا نفسي عن رد فعلك على ما تراه، خاصة وأنت تعلم أنني لا علاقة لي بما يفعلونه،

فأتمنى أن يعود لي الحق ثانية في مواجهتك لأسألك: هل كان هذا الصنف الرديء يستحق انحيازك له؟ ثم أشعر بالحزن لأنني لا زلت أفكر فيك بعد كل هذا العمر، فأحاول نسيان حزني بالغرق في بهجة الشماتة، لكن تلك البهجة لا تدوم حين يتملكني شعور بالغضب من نفسي؛ لأنني لم أعد قادرا على إدهاشك بقدرتي على الشر، وأنني أصبحت مطالبا بأن أتفوق على كائنك المفضل؛ لكي لا يسلب مني ما بقى لي من تميز واستثنائية.

منذ أن أدركت كل ذلك، لم يعد رمي الجمرات يضايقني أبدا، على العكس، أصبحت ساعاته تمضي سِراعا في السخرية من كذب القاذفين، والتفكير في طريقة لفضح كل منهم على حقيقته. صحيح أنني أرى أحيانا قلة صادقة مندسة وسط جموع الراجمين، فيؤلمني فشلي في إقناعها بأن تكون كما أحب، وحرصها على أن تكون كما أحببت أنت، لكنني أتجاوز هذا الألم بتذكر كلام أعجبني حين سمعت بعض عبادك يرددونه في مناسبات متفرقة؛ كلام من نوعية «الشجرة المثمرة تقذف بالحجارة ـ الضربة التي لا تقصم ظهرك تقويك ـ الصبر مفتاح الفرج ـ الشتيمة ما بتلزقش»، بالأمس مثلا ظللت أردد عبارة أعجبتني حين سمعتها من رئيس مصري تقول: «زمان لما كنت صغير كنت باقول للي بيضربوني: بكره أكبر وأضربكم»، أخذت أرددها وأنا أضحك من أعماق قلبي متخيلا نفسي وأنا أقوم بتقييد كل شخص رماني بجمرة أو حذاء أو حصاة، وأقوم برجمه وأنا أسبه وألعنه وأتهمه بأنه سبب كل مصائبي وكوارثي ونكباتي، وحين «شرِقت» من فرط الضحك، وجدت نفسي أقول عبارة كنت قد نسيتها من زمان: «اللهم اجعله خيرا».

وما حسبته لقيته، فما إن هدأ ضحكي وعدت لتأمل وجوه الراجمين، حتى أفزعني أن أجد بينهم هذا العام وبشكل أكثر من كل الأعوام السابقة، حُجّاجا كثيرين لا يقومون هذه المرة بسبي ولعني في لحظات الرجم، بل يقومون بسب ولعن حكامهم ورؤسائهم؛ بدعوى أنهم يعملون لديَّ ويأتمرون بأمري حين يقومون بقتل مواطنيهم من أقارب وأحباب ومعارف هؤلاء الحُجّاج، وأعترف أن هذه كانت أكثر لحظة شعرت فيها بالإهانة في حياتي؛ ولذلك كان لا بد أن ألجأ إليك لعلك تتدخل وتأمر عبادك بأن يتذكروا من كنت حين كنت أنعم برضاك؛ لأنه يفزعني أن يتصور هؤلاء أن مخلوقا بعقلي ومهارتي وعبقريتي وكفاءتي، يمكن أن يستعين بخدمات مجموعة من عديمي الخيال والموهبة والكفاءة، ليتك تقول لعبادك إن هؤلاء الذين نصبوهم حكاما لا يشرفني حتى أن ينظفوا فضلاتي أو يحملوا حذائي، فضلا عن أن تكون بيني وبينهم علاقة عمل من أي نوع، ليتك تقول لهم أن يختاروا اتهامات منطقية لكي يتم نسبتها لي، فحتى أنا برغم كراهيتي لهم فردا فردا، أجد مسألة القتل الجماعي منفرة للغاية؛ لأنها تفتقر إلى أي خيال، ولا تبعث أبدا على البهجة.

قل لهم إنني يمكن أن أضيع وقتي بمنتهى الرضا مع قاتل تسلسلي يستمتع باختيار ضحاياه وتعقبهم وقتلهم وإخفاء جثثهم، أو مع شخص طموح يخطط لجريمة قتل معقدة يفلت بعدها بفعلته ويستمتع برؤية الجميع يبحثون عنه دون جدوى، لكن أين هي البهجة في أن أقتل عشرات الآلاف جهارا نهارا لمجرد أن أبقى محاطا بين جدران قصري خائفا من كل ما يحيط بي؟ وما هي اللذة

التي يمكن أن أشعر بها حين أقتل مئات الأشخاص لمجرد أن أقوم بإخلاء ميدان تافه شديد القبح لمجرد أن أنعم بنشوة السيطرة التافهة؟ وأين هي الشجاعة في أن أرى رأسا يتدحرج أمامي وأنا أهتف مكبرا مهللا باسمك؟ أو أن أكمن في مخبئي كالفأر المذعور لأستمتع برؤية الأشلاء الناتجة عن قنبلة زرعتها؟ وما هي أهمية أن أقتل أو أن أُقتل لمجرد أن يظل أهطل ملتحٍ أو حليق الذقن على كرسي الحكم؟

ثم إذا كان كل هذا القتل يبهج عبادك ويمتعهم أو يشعرهم بالأهمية والعظمة لأنهم يعبثون بحياة مخلوقاتك، فما شأني أنا بكل هذا؟ ولماذا لا يمتلك عبادك القدرة على مواجهة أنفسهم بأنني لا يمكن أن أكون مسئولا عن هذا الجنون ثقيل الظل؟ وإذا كانوا لا يستطيعون أن يواصلوا حياتهم بدون جعلي المسئول عن الجحيم الكئيب الذي صنعوه في الأرض التي خلقتهم لعمارتها. لست محتاجا لأن أخبرك أنني فكرت أن أضع «سمايلي فيس» بعد عبارة (خلقتهم لعمارتها)، فأنت تعلم أنني تراجعت عن ذلك لأن مجرد إظهار شماتتي بمثل هذه السخرية سيجعلني أبدو أنني مكترث للغاية بموقفك؛ لذلك فضلت أن أحاول إقناعك أنني لا أكترث، مع أنك تعلم أنني مكترث، لكن هذا ليس مهمّا الآن، المهم أن أؤكد لك أنني لا أطلب من عبادك أن يكفوا عن النفاق والكذب، فهم يكذبون عليك وأنت كفيل بهم، ولا أتصور أن هناك أملا في إقناعهم بهذه الأفكار لأن الرد عليها سيكون بعبارات أكثرها تهذيبا (الشيطان يعظ)، وسأدخل معهم في جدل سوفسطائي عقيم يهدف إلى إثبات طهرهم وتأكيد عهري،

عادة عبادك ولن يشتروها، ولست أطلب منهم أن يتغيروا من أجلي؛ لأنهم لو كانوا قابلين للتغير لتغيروا من أجلك، بدلا من أن يظنوا أن مجرد رجمهم لي سيحل مشاكلهم ويقربهم إليك، لست أطلب منهم سوى أن يتحلوا أثناء كذبهم ونفاقهم ببعض الخيال وبعض الشرف، فهل هذا كثير؟».

سبتمبر ٢٠١٤

دعوني أحدثكم عن «الحفّافة»!

الناس يسمونها «حفّافة»، وهي لا تحب تلك التسمية مع أنها ابنة منطقة شعبية تربت فيها على أنه لا عيب إلا العيب، لكنها مع ذلك اختارت البحث عن تسمية أخرى، ليس فقط لأنها خريجة جامعية لديها كبرياء؛ ولكن لأنها تعمل في «بيوتي سنتر» كبير ومحترم في مدينة نصر، وليست «ما تآخذنيش يعني» من اللواتي يقمن باللف على ستات البيوت؛ لذلك هي تفضل تسمية نفسها «خبيرة ميك أب»، وزبائنها لا يمانعون الاسم؛ لأن كلمة «حفّافة» لا تليق أيضا بمستواهم الاجتماعي، وأهلها أيضا أعجبهم لقب «خبيرة ميك أب» واعتمدوه بفخر بالغ، حتى إن زوجة أخيها التي تعمل في المهنة منذ سنوات وأدخلتها إلى المهنة وعلمتها أصولها، لم تعد تُحرج وتغمغم بكلمات غامضة عندما يسألها أحد عن مهنتها، بل أصبحت ترفع رأسها بشموخ وتقول: «خبيرة ميك أب».

في سنوات ما بعد الثورة لم تكن بطلتنا من الذين تضرروا من تدهور الأحوال الاقتصادية في البلاد، فالشعر ليس عزيزا، وإلا لما كان يطلع حتى في الدهاليز كما تعلم، ولذلك فقد كان لديها كل يوم

ثمة من تحتاج إلى حَفّ وتزيين وتهيئة و«نظافة شخصية»؛ مما جعل دخلها الشهري من السنتر يصل إلى ستة آلاف جنيه مرة واحدة، ولله الحمد والمنة.

أشياء زوجها كانت معدنا أيضا؛ فقد كان سائق تاكسي من النوع المحب للمهنة والصامت أيضا في نفس الوقت، وهو نوع شارف على الانقراض، لكن مؤهلاته كانت كافية أن تجلب له زبائن محبين وأسخياء، لم تكن محظوظة فقط بزوجها لأنه كسيب؛ بل لأنه كان جدعا و«حنّين» عليها وعلى ولديها، ومستقبل الولدين بدا واعدا بفضل ما كان الاثنان يدخرانه كل شهر، وإذا كانت نفسك قد بدأت «تموع» من فرط السعادة الموجودة في الحكاية، فدعني أذكرك أننا نتحدث عن مواطنين مصريين عاديين؛ ولذلك يستحيل أن تستمر القصة سعيدة هكذا بعد البوبينة الأولى بلغة السينما، حتى «تعالوا نشوف»:

يومها، كانت العروسة المنتظرة قد جاءت إلى البيوتي سنتر بصحبة والدتها لعمل اللازم قبل زفافها بليلة؛ ولذلك لم يكن غريبا أن تكون مستعجلة ومتوترة و«مش طايقة حد»، كان يجب أن تبدأ زينتها بـ«السويت»؛ ذلك الاسم الذي فضَّله أهل بلادنا على «الحلاوة» كما فضَّلوا الأدب على العلم، بطلتنا اقترحت يومها أن تبدأ عملها في «الإسبيشيال إيريا» لأنها «الأصعب في الشغل»، لكنها قررت بعد أول نظرة أن ذلك لن يكون ممكنا قائلة لصاحبة السنتر: «معلهش يا مدام أصل الآنسة عليها دم»، ولم تكن تقصد بالطبع مدح العروسة بأن عندها دما، بل كانت تقصد الإشارة إلى أنها تمر بأيام دورتها الشهرية،

والجملة التي قالتها بطلتنا «عادي يعني»، لم تعجب العروسة التي قالت بغضب: «إيه عليها دم دي؟ مش تختاري ألفاظك وبلاش الألفاظ البيئة دي.. اسمها عندها البيريود.. وبعدين مش فاهمة إنتي مالك باللي عندي.. ما تشتغلي وانتي ساكتة أحسن لك». ولأن بطلتنا «بنت سوق»؛ فقد كانت مدربة على أن تتعامل مع أي انفلات أعصاب بثبات انفعالي وبابتسامة عريضة جدًا، لكنها لم تقوَ على الابتسام هذه المرة لأن مزاجها كان متعكرا يومها؛ ربما لأنها كانت أيضا «داخلة على البيريود»؛ أو لأن هناك تفسيرا آخر أكثر منطقية تقوله الآن بعد أن اتضحت نظرتها لما جرى؛ تفسيرا يضع ما جرى لها في سياقه التاريخي والاجتماعي حين يقول: «اللي زينا حظه كده.. استحالة تكمل معانا حلو للآخر».

لا أريدك أن تفترض أن بطلتنا غضبت يومها من انفعال العروسة فرفعت صوتها أو حتى لوت بوزها، على العكس تماما، فقد ظلت هادئة كراهب بوذي قديم، وقالت للعروسة الغاضبة بأدب جم: «يا فندم أنا ممكن أعمل لحضرتك اللي انتي عايزاه بس ما ينفعش أقرب للإيريا دي وانتي عندك البيريود»، لتنفلت العروسة المتوترة بوصلة من السباب، لم ترد عليها بطلتنا، مكتفية بالابتعاد عن العروسة الغاضبة، وعندما طلبت منها مديرة البيوتي سنتر أن «تعديها» وتشتغل، طلبت منها أن تنظر بنفسها إلى «الإيريا» لترى كيف تبدو آثار الاستحالة جلية للعيان: «يا مدام لو قلتي لأي واحدة من البنات تشتغل في الإيريا بحالتها دي مش هترضى»، وإذا كنت لم تفهم ما تقصده بطلتنا بجملة «بحالتها دي»، فدعني أقل لك إنني

لم أفهمها أنا أيضا، لكنني لم أسألها عن أي تفاصيل للتفسير، «مش لإني مش قادر ولكن لإني مش عايز».

العروسة الغاضبة لم تكتفِ بعد تيقنها من رفض بدء «الشغل فيها» بشتم البنت، بل شتمت البيوتي سنتر وصاحبته واليوم الذي جاءت فيه، متوعدة الجميع قبل انصرافها بالويل والثبور وعظائم الأمور، والكل تعامل مع تهديداتها على أنه انفلات أعصاب طبيعي بسبب «اللي هي فيه»، متمنين لها أن تجد «حفافة بيتي» تتساهل في التفاصيل وتوافق على أن تفعل لها كل ما تريده دون تأفف، وبعد أن انصرفت بزعابيبها، ظلت بطلتنا طول اليوم تتفنن في معاملة زبائنها بزيادة عن الطبيعي، لتثبت لصاحبة البيوتي سنتر أنها لم تكن متكاسلة أو متخاذلة، وكل ما هنالك أنها لم يكن ينفع أن تشتغل في «إيريا بالحالة دي».

قطع

(ليل ـ داخلي ـ تخشيبة قسم شرطة)

ترقد بطلتنا على أرضية التخشيبة محاولة أن تفهم ما الذي أتى بها إلى هذه التخشيبة المكتظة بمجموعة من المجرمات الجنائيات ومجموعة أخرى من الفتيات والسيدات المحتجزات من مظاهرات جماعة الإخوان، لم تتوقع أن تجد نفسها محتجزة مع إخوانيات، وهي التي تحب البطل عبد الفتاح السيسي وتعشق سواد نور عينيه، ولم تتأخر لا هي ولا زوجها ولا عائلتها في مساندته وتفويضه وتأييده لكي يطهر مصر من الإخوان، فكيف إذن حدث ما حدث؟

آه من الأيام آه، فلو كانت بطلتنا تعلم أن أخا العروسة الغاضبة وكيل نيابة «قد الدنيا» لكانت قد تنازلت وفعلت لأخته ما تريد في «أي إيريا في أي بيريود»، لكن كيف كان لها أن تتوقع أن سعادة الباشا أخا العروسة سيأتي في اليوم التالي مباشرة ليحول تهديدات أخته من بعبعة إلى كابوس، حين يتهم بطلتنا بسرقة خاتم ذهبي ثمنه ثلاثة آلاف جنيه من حقيبة أخته، هي أيضا لو كانت تعلم أن ردها المتفاخر بأنها ليست بحاجة للسرقة لأنها تقبض ستة آلاف جنيه شهريًا من المركز سيورطها لاحقا في مشاكل تخص الضرائب وتصريح العمل والصحة لكانت قد اختارت ردًا آخر أكثر انسحاقا، ببساطة هي لم تكن لتعلم أبدا أنها ستتحول إلى متهمة على الورق بتهمة السرقة، بينما تهمتها الحقيقية التي لم تكن تعلم أن القانون يعاقب عليها هي حرق دم وكسر نِفس العروسة أخت الباشا بنت الناس الأكابر «اللي كلهم حابين يخدموا عروسة منكسرة النِّفس».

تقول بطلتنا لنفسها ولمن ارتاحت لهن من شركاء ليالي التخشيبة المقبضة بحزن شديد: «لو كنت أعلم ذلك كله لنظفت لها بفمي وليس بيدي»، ولم تكن تبالغ فيما تقوله، هي تقسم على ذلك مرارا بكسر الميم وفتحها؛ لأن كل ما كانت ستعاني منه وقتها من قرف وأذى، لم يكن ليساوي أبدا رميتها في تخشيبة القسم «رمية المواطنين العاديين» ـ ولعلك أصبحت تعلم أنها أمَرُّ وأدهى من رمية الكلاب ـ لمدة شهر كامل دون أن يبان لها بيان، كل دم الدنيا النازف من كل «الإيريهات» لن يجيء شيئا في تعرضها للتحرش والتحسيس والمسك في كل «إيريا» دون خشا ولا حياء، ولا في رؤيتها لمشاهد تعذيب لمحتجزات هددن الضابط بأنهن سيخرجن إلى الإعلام ليشتكين

ما حدث لهن من تحرش، فكان جزاؤهن حفلة تعذيب لن تنساها البطلة ما عاشت، وكان جزاء رفيقاتهن في التخشيبة ـ حتى اللواتي لا علاقة لهن بالأمر مثلها ـ أن يتم إغراق أرضية الزنزانة بما عليها من مراتب وبطاطين لمدة ثلاث ليالٍ تكديرا لهن؛ وضربا للمربوطة والسايبة و«اللي مش فاهمة أصلا هي هنا بتعمل إيه».

غرق بطلتنا في أحزانها وهي جالسة دون حراك على البطانية الغرقانة، لم يفقدها أبدا إيمانها بالله، فلم تتخلَّ عن دعائه والتوسل إليه بأن يفك كربها ويعجل لها بالفرج ويخرجها سالمة لزوجها وولديها، وهي لم تكن تتخيل أن الله سيستجيب لدعائها سريعا ويجعل حظها أفضل من كل المظلومات معها، حين ساق لها وكيل نيابة «جدع» جاء أجمل من أحلامها، لم تصدق صوته الغاضب عندما قال: «إنتي إزاي أصلا اتحبستي كل ده في قضية بايظة؟»، كلماته الرائعة أنستها أنها جاءت متأخرة بعد شهر كامل ظلت فيه مرمية في التخشيبة حيث كان يمكن أن يطول حجزها لأشهر، لولا أن تم عرضها على النيابة بعد كم مهول من الوساطات والإكراميات والمحايلات بذلها زوجها وصاحبة البيوتي سنتر لدى كل من هو مهم أو يمتلك سكة إلى «حد مهم»، لكن هذا ليس مهمّا، المهم أنها خرجت بالسلامة. صحيح أنها تأخرت بعض الشيء في مكتب وكيل النيابة؛ لأنها ظلت فترة طويلة تدعو لوكيل النيابة الذي رأت في عينيه دموعا ذكَّرتها أنه كان «البني آدم» الوحيد الذي رأته منذ شهر.

لدى بطلتنا ثقة أن الله تعالى سيستجيب لدعاءها لوكيل النيابة الذي أخرجها من السجن، لكن ما تتمناه أكثر أن يستجيب الله

لدعائها على وكيل النيابة الذي أدخلها إلى السجن، والذي لم يكتفِ بكل ما جرى لها، بل قرر أن يطاردها هي وزوجها ويحاصرهما في رزقيهما؛ لأنهما قررا أن يرتكبا جريمة شنعاء، هي جريمة عدم تقبل الظلم والسكوت عليه، وهي جريمة حرضهما عليها المحامي الحالم الذي تابع قضيتهما والذي أقنعهما أن لديهما فرصة لكسب قضية رد اعتبار وإثبات الظلم الذي تعرضت له لتأخذ حقها من وكيل النيابة، وهو أمر لم يكن ممكنا أن يتسامح معه الباشا أخو العروسة؛ لأنه يمكن أن يسبب له مشاكل في عمله، خصوصا بعد أن أصبح موقفه ضعيفا بفعل الموقف الذي أخذه زميله وكيل النيابة الذي انحاز ضده ووقف مع هذه الحفافة الحقيرة التي حوَّلت ليلة عمر أخته إلى ليلة مزعجة.

بطلتنا عادت لتصبح مجرد حفافة بعد أن فقدت لقب خبيرة تجميل؛ لسبب بسيط، هي أنها لم تجد فرصة لكسب رزقها إلا من خلال شغل البيوت في «أي إيريا» في القاهرة والجيزة وضواحيهما، بعد أن نجحت ضغوط الباشا وأخته وأصدقاء عائلتهما الكريمة في إجبار صاحبة البيوتي سنتر على الاستغناء عنها؛ وقد جعلها ذلك تفقد تماما الرغبة في الحصول على أي رد اعتبار أو إنصاف؛ لأن التهديدات التي تعرضت لها هي وزوجها من قبل بلطجية راغبين في مجاملة الباشا، أدت بها إلى أن تترك بيتها لفترة، وأن يترك زوجها التاكسي الذي يعمل عليه بعد تعرضه لسلسلة اعتداءات متلاحقة؛ ولذلك سحبت هي وزوجها كل بلاغات رد الاعتبار وكل أحلام الإنصاف، وفوضت أمرها هذه المرة إلى الله، ليس سواه.

هي لم تعد تحلم الآن سوى بأن يصدق الباشا وأخته أنها وزوجها قد تعلما الدرس جيدا، وأن يوافقا على توسلاتها بأن يبلغ صاحبة البيوتي سنتر بعدم ممانعته لعودتها إلى العمل، فقد زهقت من اللف على البيوت والفصال المرهق وتحمل تحرشات رجال البيوت، هي تحن بشدة إلى لقب (خبيرة ميك أب) الذي فقدته لأنها لم تدرك حقيقة بسيطة جدّا يجب أن تضعها أمامها كل من تحلم بالحفاظ على لقب خبيرة تجميل مدى الحياة: «في هذا البلد، لا ترفضي أبدا تنظيف أي إيريا قبل أن تسألي عن شجرة عائلة صاحبتها».

أغسطس ٢٠١٣

قوم يا مصري.. نام في سريرك!

لا تعتبروني مهووسا بنظرية المؤامرة عندما أقول لكم إن هناك نوايا غير وطنية أو حتى غير فنية، وراء اختيار التلفزيون المصري لأغنية «قوم يا مصري» التي أبدعها الفنان الخالد سيد درويش لكي تكون خلفية موسيقية لتغطية الانتخابات الرئاسية. فقد تعودت على ألا أثق في أي قرار يتخذه «العاكمون بغير أمر الله» في هذه البلاد؛ ولذلك لا أرى أن اختيارهم لهذه الأغنية وراءه سبب سوى أنها تصب بشكل مباشر في مصلحة الرئيس مبارك، فهي تقول في كلماتها: «قوم يا مصري مصر دايما بتناديك.. خُد بنصري.. نصري دين واجب عليك.. يوم مبارك.. رُدّ تارك»... إلى آخر كلمات الأغنية.

ولأننا جميعا نعلم أن يوم الانتخابات الرئاسية سيكون «يوم مبارك» طبقا لنص المسرحية المطبوع والمنشور في تعديلات المادة ٧٦ بتوقيع الدكتور فتحي سرور؛ لذلك لا داعي للضحك علينا بالقول إن اختيارها نابع من إيمان ساسة مصر بضرورة أن يتذكر المصري أن «مصر بتنادي عليه»، فهم يعلمون جيدا أن المصري «إطرش» ببركات ثلاثة وخمسين عاما من الاستبداد لم يستمع فيها إلى أي نداء من مصر بعد أن قام الحكام بعمل مصر «سايلنت» ومنعوا

عنها حتى قدرتها على «الفايبريشن»، واحتفظوا لأنفسهم فقط بحق النداء الآلي والنصف الآلي واليدوي وغيرها من أشكال النداء التي يبخونها في أذن المصري والتي تتغير بحسب تغير الحاكم ولجنة سياساته، فحينا ينادي الحاكم على المصري: «قوم يا مصري قامت عليك حيطة.. عشان الحتة اللي إنت قاعد فيها ملك للدولة وقررنا نأممها ونعملها مشروع قومي، أو قوم لإننا قررنا نبيعها، أو قوم لإننا اكتشفنا إنها بتاعة ابن الريس»، وحينا ينادي عليه: «قوم يا مصري إنجرّ قررنا نرمي إسرائيل في البحر»، ثم يقرر فجأة أن يغير النداء إلى «قوم إنجرّ روّح مافيش حرب مع ولاد العم»، ثم يقرر فجأة أيضا أن يغيره إلى «قوم إنجرّ وريهم طريق أرضك منين عشان يزرعوها». أما النداء الذي لا يتغير أبدا في كل العهود فهو «قوم فزّ يا مصري عشان تبايع حاكمك الذي علّمك العزة والكرامة، أوالذي قال الكلمة بحكمة في الوقت المناسب، أو صاحب الروح السمحة أدب ومصالحة صافي القلب يا كفر مصيلحة».

سيخرج عليَّ البعض الآن ليقول لي: «خسئت.. إن صوت مصر لم يخرس أبدا ولا يجرؤ أي حاكم على أن يتمكن من إسكات مصر التي لن تتوقف أبدا عن النداء على ابنها لكي ياخد بنصرها»، ورأي هؤلاء مع احترامي له هو اتهام صريح للمواطن المصري بعقوق الوالدين لأنه يسمع أمه تنادي عليه ومع ذلك «مطنش»، وهو أمر فعله الكثيرون منا مع أمهاتهم هروبا من النزول لإحضار العيش من الفرن أو انتظار بتاع الأنابيب في البلكونة، والحقيقة أنني أعتقد أن هذا الاتهام غير دقيق؛ لأنه يفترض أن صوت مصر وهي تنادي مسموع لدى المصري، بينما في اعتقادي أن حالة الخرس التي فُرضت على

المواطن المصري بأشكال متعددة بدءا من وضع الصرمة في فمه وانتهاء بوضع الميكروفون في فمه ثم حذف ما يقوله في الرقابة، أدت به إلى أن يستعيض عن حالة الخرس هذه بالتعبير عن وجوده بالزعيق: الزعيق في الصالة على زوجته وأولاده الذين لا يقدرون مجهوده التاريخي في العبور بالأسرة من أجل المستقبل، والزعيق من البلكونة على العيال اللي بتلعب في الشارع لأن الشارع ليس للعب والعياذ بالله، والزعيق من أسفل البلكونة للمطالبة بنزول السَبَت ـ وهو الشيء الوحيد الذي يمكن أن تطالب بنزوله في الشارع المصري دون مساءلة، والزعيق من على المنبر بأن يزلزل الله أمريكا ويخسف بإسرائيل الأرض وبالمرة ينصر إخواننا في الشيشان على روسيا، والزعيق في الإستاد على حكام الكورة ـ وهم الحكام الوحيدون في مصر الذين يسمح التلفزيون بإذاعة سب أمهاتهم ـ والزعيق في القهوة على الجرسون ليسرع بتغيير الحجر ـ وهي عملية التغيير الوحيدة التي تتم بسلاسة وبشكل يومي في مصر ـ وخذ عندك ما شئت من أنواع الزعيق التي تجعل المواطن يسُب ويلعن كل شيء ابتداء من حظه الأغبر، ومرورا بالعيشة واللي عايشينها، وانتهاء بمصر «اللي هي أمه».

والغريب أن كل هذا الموزاييك من ألوان الزعيق لا يمنع المواطن من الزعيق في نهاية المطاف في أقرب لقاء بالحاكم «يا مبارك يا مبارك الشعب المصري قد اختارك»، طيب قولوا لي إذن بالله عليكم: كيف يمكن لأي مواطن مهما كانت حدته السمعية أن يستمع إلى «ماما مصر» وهو مشغول بالزعيق طيلة العمر لمجرد إثبات وجوده؟ وهو أمر ما كان سيحدث لو كان قد شعر أن لكلمته قيمة وأن لرأيه احتراما.

أقول هذا الكلام لا سخرية من الزعيق بل محاولة لتفهمه؛ لأنني أومن بأن الذين يسخرون من الزعيق احتجاجا أو شتيمة أو غضبا ينسون أن الصراخ هو حيلة اليائس، وأن التضبيش هو آخر أمل للموشك على الغرق.

إن هؤلاء الذين يتهمون المعارضين بالإفلاس لأنهم يزعقون في المظاهرات للتعبير عن سخطهم، ينسون أن الحاكم نفسه لا يستمع إلى أصوات مواطنيه إلا من خلال الزعيق عندما يقف أحد «الشحوطه» ليزعق بأنه يفدي الرئيس بدمه مع أنه يعلم أننا نعلم أن الذي يزعق هكذا لا يمكن أن يكون عنده دم أساسا، أو عندما يقف جائع ليزعق بأمل يائس «المنحة يا ريس»، فيبتسم «الريس» مطمئنا له أن العمال في قلبه الكبير الذي يتسع لمحدودي الدخل وأصحاب المليارات والموظفين في جميع الإدارات، بمن فيهم موظفو الإدارة الأمريكية وكمان فوق البيعة المستوطنون الراحلون عن مستوطناتهم - يااااه شايفين قلب الرئيس كبير قد إيه ياولاد -.

ما أريد أن أقوله إنه إذا كان اليائس يزعق والموالس يزعق، فكيف سنسمع صوت مصر التي «اتنبح حسها يا عيني» وهي تنادي «خد بنصري»، دون أن يأخذ أحد بيد نصري الذي مات في صحراء سيناء ٦٧، ومات مرة ثانية في انتفاضة الجياع في ٧١، وقتل في أحداث الأمن المركزي ٨٦، وعادت روحه الطاهرة لتزهق بالسرطان في ٢٠٠٥، ولعل الله يرحم روح نصري البائسة يوما ما فتهدأ مصر وتكف عن النداء عليه قليلا.

لقد أضاع حكام مصر فرصة ذهبية للاستماع إلى صوت مصر

وهي تنادي أبناءها من أجل التغيير الحقيقي، عندما حولوا أول انتخابات رئاسية تجري في تاريخ مصر إلى مسرحية تنتمي إلى نوع مسرح الحجرة - وهي حجرة في قصر العروبة تعلم أن ساكنها لن يغادرها بعد أن ضمن له رجاله كل سبيل إلى الإقامة الدائمة، مع أنه لا دايم إلا وجه الله. وعندما يأتي هؤلاء الحكام لكي يستخدموا نداء العظيم سيد درويش: «قوم يا مصري» الآن، فهم يعلمون أنهم لا يريدون للمصري أن تقوم له قومة حقيقية لأن في ذلك قيامتهم، هم يريدونه قياما مؤقتا كذلك القيام الذي يعيشه المصري كل يوم في بيته عندما يغالبه النوم أمام التلفزيون أو وهو يذاكر أو وهو يستمع إلى أم كلثوم وهي تغني «يا رئيس امبارح ورئيس دلوقتي ورئيسي لبكره ولآخر وقتي»، وما إن يروح في النوم حتى يصحو من نومه على يد أمه الطاهرة وهي تقول له: «قوم يا مصري.. نام في سريرك».

٢٠٠٥

دورة حياة الرئيس

(من دائرة معارف الحيوانات السياسية)

الرئيس: كائن سياسي هلامي رخوي إسفنجي آكل للأحلام ذو أنياب وقواطع، يعيش في كافة البيئات الصحراوية والزراعية والمائية ويمكن أن يعيش في الحارات المزنوقة، على أن يتم حفظه في درجة حرارة غرفة القصر الرئاسي، ينشط نهارا ويتراجع ليلا، ويتغير شكل خليته وتكوينها من حين لآخر، وقد تظهر له أيدٍ وأقدام كاذبة خلال حركته، وتتحور أطرافه الأمامية عند هبوب تيارات هوائية غاضبة من أمريكا الشمالية، موطنه الأصلي ينساه بعد أن يقضي وقتا طويلا في موطنه الجديد، يتغذى على تصديق الناس لوعوده وعلى خوفهم من التغيير، لا يصنع غذاءه بنفسه بل يتطفل على ميزانية الدولة، وبعض الأنواع منه تعيش معيشة البكتيريا المترممة، يفضل العيش في وسط يمتلئ بمادة النفاقيزم القمعوبلازمية التي يكتسب بفضلها دروعا تحميه من الهجوم والتغيير، يزيد وزنه بفضل عملية النفاق الضوئي بدءا من مرور شهر على توليه لمنصبه ولا يتوقف منذ تلك اللحظة عند وزن وحجم ثابت، يمتلك جسده القدرة على التجدد وتعويض الأجزاء المقطوعة، ويقوم دائما بتكوين براعم

طرفية ذات خلايا قمعية يزداد تفرعها لتنتشر في جميع أنحاء البلد التي يحكمها، وتكون جاهزة لالتقاط الفرائس وإحكام القبضة عليها حسب الظروف المحيطة، يهاجر كل عام إلى أمريكا الشمالية وأوربا والخليج العربي لجلب المعونات، يتكاثر ذاتيًا بشكل لا جنسي حيث يقوم بإنتاج أفراد جديدة منه تؤيد سياساته دون الحاجة إلى وجود ذكر وأنثى، وتقوم الأفراد الجديدة التي تحمل صبغته الكروموزمية بمهمة تصفية حساباته مع معارضيه.

يستخدم الرئيس في عملية التنفس أنقى أنواع الهواء التي توفرها له أجهزة تنقية الهواء في قصره، ويقوم بإخراج ثاني أكسيد الكربون الزائد من عملية التنفس إلى الشعب. لا يستجيب الرئيس للمؤثرات التي تستجيب لها معظم الكائنات الحية كالنباتات والحيوانات، فهو لا يتفاعل مع الضغط السياسي ودرجات الحرارة الشعبية وألوان الضوء المنبعث من إشارات الواقع الاجتماعي، وتفيد أغلب الدراسات العلمية أنه يفضل الاستجابة لضغوط عزرائيل أو أمريكا أيهما أقرب.

يشهد جسم الرئيس دائما تفاعلات أيضية بسبب عمليات الهدم الناتجة عن قراراته، وينتج عن تلك التفاعلات الأيضية فضلات سامة يقوم بإخراجها في أجهزة الإعلام لكي يتم تخزينها في الفجوات العصارية للمواطنين، والتي تتعرض للانفجار البيضوني عندما تزيد الحمولة المخزنة منها على شكل بلورات تشريعية أو إعلانات دستورية سائلة.

يمر كائن الرئيس بعدة أطوار تشكل دورة حياته:

الطور الانتخابي: ويبدأ عقب الدفع به من رحم الحياة السياسية كيرقة رئاسية، وهنا تنشط غدد الرئيس في إفراز أكبر قدر ممكن من الوعود، وتظهر عليه تغييرات بيولوجية تجعل النور يشع من جبهته ووجهه، وتتسع ضحكته بشكل ملحوظ بفعل تمدد الغدد الانبساطية، وتحدث رقة فسيولوجية في نبرات صوته، وتصدر عن جسمه إشارات حرارية تجذب إليه الجماهير، ويكون في هذه الفترة قابلا للاحتضان والتقبيل والتمليس والحمل على الأكتاف والمصافحة من اللي يسوى واللي ما يسواش، ويكون موطنه الأصلي في هذه الفترة أستوديوهات الفضائيات والسرادقات الانتخابية، وينتهي هذا الطور إما بتعرض اليرقة الرئاسية للوفاة بسكتة انتخابية، وإما وصولها إلى كرسي الرئاسة ليبدأ الكائن الرئاسي طورا جديدا من أطوار حياته.

الطور اليميني: ويبدأ عقب إعلان نتيجة الانتخابات الرئاسية التي تخرج كائن الرئيس من مرحلة اليرقة الرئاسية إلى مرحلة الفرخ الرئاسي؛ حيث يبدأ في التعرف على نفسه من خلال عملية اليمين الرئاسي التي يقوم بإلقائها، كما يبدأ في التعرف على موطنه الأصلي الجديد المعروف بقصر الرئاسة، وفي حين يحافظ على اتساع ضحكته ورقة نبرات صوته، تقل بشكل ملحوظ الإشارات الحرارية الجاذبة للجماهير فتتضاءل قابليته للاحتضان والتقبيل والتمليس، وتصبح مصافحته مكفولة فقط للي يسوى، وتصبح خطيرة العواقب على اللي مايسواش، وتتحول غدد الرئيس في هذا الطور إلى إفراز نوع آخر من الإفرازات الكيميائية هو التصريحات، ويحدث تضخم في الجهاز الخطابي لديه؛ يجعله يصاب بحالة من الخطابة اللاإرادية.

طور الله في برسيمه: تختلف بداية هذا الطور من كائن رئاسي لآخر، فالبعض تظهر عليه أعراض هذا الطور بعد سنين طويلة من بقائه في الموطن الأصلي الجديد، والبعض لا يستغرق أكثر من أشهر لكي يبدأ هذا الطور، ويتوقف ذلك على عوامل التعرية التي يقوم بها الواقع الجيوسياسي على السطح الخارجي للكائن الرئاسي، تبدأ أعراض هذا الطور عندما يحدث اختلال في درجة التمثيل الضوئي في الخلايا الرئاسية؛ حيث تزيد كمية الأضواء المسلطة عليه أكثر بكثير من كمية الأضواء الخارجة منه، وفي هذا الطور تنعدم الإشارات الحرارية الجاذبة للجماهير، وتنعدم القابلية للاحتضان والتقبيل والتمليس والحمل على الأكتاف، في حين تستمر إمكانية المصافحة لكنها تصبح عملية من مراحل معقدة بعد أن كانت عملية من مرحلة واحدة بسيطة، كما تحدث خشونة تلقائية متصاعدة في نبرات الصوت الرئاسي، مع ميل غريزي للتلويح بالسبابة في الخطابات العامة، والتلويح بالوسطى في المحافل الخاصة، وفي هذا الطور تطرأ تغييرات جينية على الخلايا الأذنية للرئيس فتصبح غير قابلة للاستجابة السمعية إلا إلى أصوات معينة تحدث تأثيرات انبساطية عليه، وتزداد قوة ارتباطه بأطرافه القمعية، ويدمن تحريكها بشكل مستمر، ويشعر برغبة حادة في الهرش عندما يتم منعه من تحريكها.

طور طرة: في أغلب الحالات تصل الكائنات الرئاسية إلى هذا الطور إذا اكتمل ظهور أعراض الطور السابق عليها، ويمكن ألا يصل الكائن الرئاسي إلى هذا الطور إذا تعرض لاختلال جيني يعرِّضه للفناء، أو إذا قام بعملية جراحية لإصلاح خلاياه السياسية التالفة وزرع خلايا حية جديدة، أو إذا قام في حالات نادرة جدًا بتغيير موطنه

والعودة إلى موطنه الأصلي، أما أغلب الكائنات الرئاسية فهي تصل إلى هذا الطور بعد أن تفقد التواصل مع المؤثرات الخارجية المحيطة بخلاياها، ويزداد تضخم أطرافها القمعية بشكل يجعلها أكبر من باقي جسد الكائن الرئاسي، وفي بعض الأحوال تحصل حالة توحش جيني يجعل الأطراف القمعية تقوم بأكل الجسد الرئاسي، أما الحالات التي تنجو من الفناء فيتم إجبارها على التوطين بالحبس في بيئة قسرية تختلف ظروفها حسب علاقة الكائن الرئاسي بالأطراف القمعية التي انفصلت عنه وصارت كائنات مستقلة قادرة على التأثير، وفي هذا الطور تعود إلى الكائن الرئاسي الرغبة في الاحتضان والتقبيل والتمليس والمصافحة، كما ينشط إفراز غدد من نوع آخر هي الغدد الدمعية التي يزيد إفرازها بغزارة كلما تذكر الكائن الرئاسي فقدانه لكافة أطرافه القمعية وعدم وجود أي رغبة في احتضانه أو مصافحته من أي كائن سواء كان يسوى أو ما يسواش.

٢٠١٣

شرم الشيخ وكفر الشيخ!

في مصر اليوم شيخان، تتجلى في صورتيهما الواقع الملتبس الذي تعيشه مصر. شيخٌ شَرَم البلاد والعباد بتخبطه وعشوائية سياساته التي يتبع فيها منهج عبد الحليم حافظ « جئت لا أعلم من أين ولكني أتيت.. ولماذا لست أدري.. لست أدري». وشيخٌ كَفَرَ من الفقر والقهر والغُلب من حياته التي تسير طبقا لمنهج فيروز «عشرون عاما وأنا أحترف الحزن والانتظار.. أنتظر الآتي ولا يأتي».

شَرَمَ الشيخُ البلادَ بأسطوانات الاستقرار والبنية الأساسية والإصلاح التدريجي والريادة والدور المحوري والتوازن الخارجي؛ أسطوانات ظلت دائرة كما تدور كأس الموت على العباد، حتى كفر الشيخ الذي رأى ركودا لا استقرارا ولم يفهم لماذا لا يكون الإصلاح شاملا كالفساد، ولم يشهد ريادة إلا في التخلف والقمع والفرص الضائعة، ولم يعش الدور المحوري إلا في طوابير العيش بعد أن عَـزَّ الغُموس، ولم ينشغل بالتوازن الخارجي كثيرا بسبب دوار رأسه من الاختلال الداخلي.

«شرمُ الشيخ وكفرُ الشيخ».. انحاز نظام مبارك للأولى فثارت عليه الثانية. لم تكن تلك مصادفة بقدر ما كانت رسالة تبحث عن قارئ

حصيف يعي ويدرك. منذ أسابيع قالها الرئيس وهو يرفض مشروع الجسر الحيوي بين مصر والسعودية، إنه لن يسمح لأحد بأن يعبث بشرم الشيخ، تصريح ربما لم يسمعه الذين ثاروا في كفر الشيخ؛ ربما لأنهم ناموا قبل نشرة تسعة لأن أجسادهم كانت منهكة من البحث عن المياه طيلة اليوم، ربما فضلوا أن يبحثوا في الوصلة عن ماتش أو تمثيلية أو كليب عارٍ لكي يبلوا ريقهم الذي نشفه الفقر الجديد، وربما فضلوا أن يكتفوا بمشاهدة قناة الناس دون غيرها لأن باقي القنوات قد تستثير شهواتهم فتدفعهم إلى حميم البحث عن ماء الحموم، وربما شاهدوا التصريح عمدا أو صدفة فأجج فيهم السخط على ذلك الانحياز السافر إلى شرم الشيخ، فقضوا ليلهم يسألون عن الذي يجعل العبث بشرم الشيخ حراما ويجعل العبث بكفر الشيخ جائزا إن لم يكن مستحبا.

دعك من كل هذه الربماهات. فالمؤكد الذي نعلمه جميعا هو أن سيدنا أبا ذر الغفاري ظهر أخيرا في كفر الشيخ: «عجبت لمن لا يجد قوت يومه كيف لا يخرج على الناس شاهراً سيفه»، وأهل البرُلس في كفر الشيخ لم يجدوا ماء يومهم ولا أسبوعهم ولا شهورهم؛ فخرجوا على الطريق الساحلي شاهرين جرادلهم العطشى ومراكبهم المرهقة وفقرهم المدقع ووجوههم الشاحبة وأجسادهم المنهكة من فرط الإنجازات.

هل كانت مصادفة أن يحدث ذلك في محافظة يحكمها رئيس مباحث أمن الدولة السابق الذي رأى فيما فعله الناسُ إساءة لسمعة المحافظة، لكنه لم يرَ في سَفِّهم التراب وتمنيهم الحُموم إساءة لكرامة الإنسان؟ هل هي مصادفة أن يسوق القدر إلى موقع ثورة العطاشى

مطرب الرئيس المفضل محمد ثروت دون غيره؟ هي رسائل القدر لا ريب ولكن من يقرأ؟

تتابع التفاصيل المتاحة عن الخروج الكبير في كفر الشيخ وتسأل نفسك: هل يصح أن يفرح المرء بخروج كهذا؟ تكون كاذبا لو قلت: نعم على إطلاقها، من بالله عليكم يفرح أنه يعيش في غابة؟ لكن هل العيب على من قرر أن يأخذ حقوقه غِلابا، أم على من منع نيل المطالب وقبله منع التمني؟

تهرب من أسئلتك المفزعة متقافزا بين القنوات؛ فتكتشف أن الرئيس مبارك لم يحنث أبدا بوعده تحقيق المساواة بين المصريين جميعا. في برنامج (٩٠ دقيقة) يشكو ثري يمتلك فيلا في مدينة الشروق الجديدة خالص بأنه اضطر لشراء عربية مياه بخمسة وسبعين ألف جنيه لكي يستطيع أبناؤه الخمسة أن يستحموا قبل ذهابهم إلى جامعاتهم، وفي برنامج (القاهرة اليوم) ثمة تقرير قنبلة يفضح بالصورة كيف تحفر نساء كفر الشيخ الرمال بأيديهن لتخرجن المياه الجوفية التي تلغ فيها الكلاب؛ لكي يشرب أبناؤهن الرضع منها مياها ستفتت أكبادهم وتنحر كُلاهم التي لن يستطيعوا حتى بيعها بعد ذلك، بينما في الوقت ذاته يزُفُّ جمال مبارك إلى المصريين بشرى تخطيطه لمستقبلهم المشرق الآتي في عام ٢٠٥٠، قبل أن يتوقف قليلا لكي يبلع ريقه ويصب كوبا من المياه.. المعدنية ويشرب في صحة الشيخ الذي شرم؛ لأن الشيخ الذي كفر من العطش لا بواكي له ولا بواكي عليه.

ربنا يبل ريقك يامصر.

٢٠٠٧

يِهدُّه العبثَ!

كانت تجربتي معه مريرة، لكنها جعلتني أتمثَّل الحالة النفسية التي عاشها الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان عندما اكتشف تسرعه في احترام ذلك الرجل المهيب الذي دخل عليه حلقته العلمية، فأجبره على أن يثني رِجله احتراما، لكن الهراء الذي سرعان ما تدفق من فم الرجل جعل أبا حنيفة يقرر أن «يمد رجله ولا يبالي»، وهو ما لم يكن سيكتفي به قطعا لو كان قد التقى بذلك «المهيب» الذي ساقه لي حظي العثر.

لم يكن ما جعلني «أستهيبُه»، صوته الفخيم ولا وجهه الوقور ولا شعره الأشيب الذي يقوي تأثير نظارته السوداء، بل مبادرته لتعريف نفسه بأنه المهندس فلان، رجل أعمال مقيم بالخارج منذ ربع قرن، وصديق قديم لشخصية رائعة أحبها وأحترمها، وإيماني بأن «من جاور السعيد يسعد»، جعلني أقرر ألا أقطم معه في الكلام لعلي أسمع رأيا أنتفع به، خاصة أن «دخلته» التي بدأ بها التعليق على أحداث الساعة كانت خاطفة.

«أنا بصراحة شايف كل اللي بيحصل دلوقتي عك بيعقد المشكلة بدل ما يحلها؛ لأن أساس المشكلة مع الإخوان فكري وعشان

كده غياب المواجهة الفكرية والثقافية والاكتفاء بالمواجهة الأمنية هيودينا كلنا في داهية». قال ذلك فنظرت إليه كما ينظر غريقٌ ليدٍ «مُدَّت من شباك الموج»، وقبل أن ينبس فمي ببنت لثة، عاجلني بسؤال لم يكن يقصد به الاستفهام، بل كان يقصد به التمهيد للضربة التي ستجهز على فرحتي بكلامه: «إنت عارف إيه المنهج الوحيد اللي ممكن نمشي عليه دلوقتي ويحل لنا مشكلة الإخوان للأبد؟»، مجيبا على الفور: «منهج الشهيد سيد قطب ما فيش غيره».

حتى حلقي المتعود على التحرك تلقائيًا في صدمات كهذه، بوغتت جذوره السكندرية، و«تبليمتي» جعلت السيد المَهيب يظنها طلبا للاسترسال ورجاء بالإفاضة، فانهمر قائلا: «سيد قطب وحده اللي هيساعدنا نقضي على فكر الإخوان المنحرف.. إنت عارف إنه دخل الجماعة عشان يطهرها من فكر حسن البنا.. لكن هتقول إيه في الماسونيين اللي مش سايبين مصر في حالها؟ عشان كده قتلوه، ومن ساعتها والبلد بتسيطر عليه الماسونية سواء عبد الناصر ولا السادات ولا مبارك ولا مرسي كل دول ماسونيين، وللأسف الإعلام سايب مواجهة الماسونية لناس تافهة بتشغل الشعب عن مخططاتها بمعارك عبيطة زي حكاية أبلة فاهيتا، حضرتك ساكت ليه إنت مش متفق معايا؟».

كان الجسد قد امتص صدمته الأولى، وكان العقل قد أخذ لفة سريعة في «فايل» الضلالات الفكرية التي تروج في البلاد، وكانت الروح قد أدركت أنه لا بُدَّ مما ليس منه بُدّ؛ لذلك هربتُ إلى العبث وحده اتقاء لنقاش لا طائل منه فقلت له: «أولا موضوع أبلة فاهيتا مش عبيط وإنما خطير جدًا، ثانيا موضوع سيد قطب في ناس كتير زي حضرتك مقتنعة بإن الحل في سيد قطب وكتابه معالم في الطريق».

توقعت أن يعلق على اسم الكتاب الذي اختصصته بالذكر، لكنني فوجئت به يقول بجدية شديدة: «فين؟ أنا باتابع الإعلام مش شايف ده خالص»، فاكتفيت بأن أقول: «أصل دول ما بيطلعوش في الإعلام على طول، بس بتسمع عنهم بعد كده».

بدا أن كلامي لم يثر فضوله أبدا؛ لأنه اختار أن يسألني عن سبب خلافي معه في موضوع أبلة فاهيتا، فأجبته بملامح جادة: «للأسف الناس ركزت على الأبعاد السياسية لأبلة فاهيتا، وده أصلا ملعوب ماسوني عشان يشغلنا عن الهدف الأخطر منها اللي هو استخدام الدمية دي في نشر الشذوذ الجنسي وتدمير الطابع الأصيل للأسرة المصرية». كنت أنتظر أن ترتسم على وجهه ملامح الاستغراب، لكني وجدت بدلا منها ملامح التأييد التي لا تمانع في أن تتحول بعد «زقّة كمان» إلى ملامح انبهار، فأكملت قائلا: «هل حضرتك لاحظت إنه من ساعة ما طلعت الدمية دي ما قالتش أبدا هل هي فاهيتا لحمة ولا فاهيتا فراخ؟ ده مش معمول عبثا وإنما عشان يتم نشر اضطراب الهوية الجنسية والشذوذ واليونيسيكس؛ اللي هو أنا آسف في اللفظ ممكن يخلي الواحد يضاجع نفسه بنفسه من غير ما يضطر ينزل الشارع يوم الخميس الضهر».

لمست في ملامحه نبرة تردد في تقبل ما قلته، فأدركت خطئي في تجويد العبث، وقررت أن أعود لانسيابية العبث، فقلت: «هل حضرتك لاحظت الرسائل اللي عايزين يوصلوها بإن أبلة فاهيتا تطلع أم عازبة أو سينجل ماذر زي ما بيقولوا الخواجات.. وإنها ترفض تطبيق الشرع فتتجوز بعد ما خلصت شهور العدة بدل ما تربي بنتها بعيدا عن إطار الأسرة زي الشواذ؟ للأسف كل دي مؤامرة

بتُحاك للأسرة المصرية اللي هي المنجز الحقيقي لينا.. إحنا بتُحاك يا فندم- بتُحاك كل يوم وكل لحظة.. وطبعا إحنا لا حيلتنا تكنولوجيا ولا تصنيع ثقيل ولا تقدم علمي، ماحيلتناش غير الأسرة لو باظت هنعيش من غيرها إزاي.. يعني مش الشاب هيتدمر لما يلاقي أمه اتأثرت بنموذج أبلة فاهيتا وسابت البيت عشان تعيش مع صديقة ليها عازبة ويقعدوا عالويبة يشذوا مع باقي الأمهات.. عارف لو أبوه قرر يصاحب زميله في الشغل عادي الشاب هيفرح؛ لإن البيت هيفضى وهيرتاح من وجع الدماغ.. إنما كله إلا الأم المصرية اللي ابتدا مخطط تدميرها من ساعة ما رحنا مؤتمر بكين لو حضرتك فاكره، الله يلعنهم بقى اللي كانوا السبب».

فوجئت به يهب من كرسيه نحوي، فبدأت تحضير نفسي لاشتباك أمد فيه قدمي ولا أبالي، لكنني فوجئت به يحتضنني كأنني جندي عائد من الجبهة، قبل أن يقول بصوت متهدج: «يا ريت كل الناس اللي بيطلعوا في الإعلام بالوعي ده»، فجعلتني نبرة صوته الحميمة أشفق عليه، لأقول ناصحا ومبرئا ذمتي: «ربنا يخليك يا فندم.. أنا بس أتمنى رأيك في سيد قطب بلاش تقوله لأي حد.. عشان مش أي حد هيصدق إن فكره كان هينقذنا من الإخوان.. الإعلام للأسف ملخبط دماغ الناس وممكن يفهموك غلط، وسوء الفهم دلوقتي للأسف بقى فيه خمس سنين». إحساسه بصدق تحذيري جعله يهز رأسه مقلبا الكلام فيها، قبل أن يقول بصوت متهدج: «عندك حق والله، هي أيام سودا ربنا يعدينا منها على خير»، وأنا وهو هتفنا من أعماق قلوبنا مثلما تهتف أنت الآن: «اللهم آمين».

يناير ٢٠١٤

نفس خامة الكرسي!

كانت تلك الليلة الأولى التي يبيت فيها الرئيس الجديد في مقر إقامته بداخل القصر الرئاسي، لم تمضِ دقائق على دخوله إلى غرفة نومه وبدأ حرسه في الاستعداد لساعات من الراحة بعد يوم مرهق طويل، حتى فوجئ الحرس به يخرج وقد ارتدى «ترييننج» عجيب الألوان ظل شكله مثارا للتندر بينهم لفترة، فوجئوا به يطلب منهم الخروج بصحبته إلى «فرن إفرنجي» قريب من القصر قال لهم إنه كان زبونا له من زمان. لم يكن لديهم خيار سوى الاستجابة لرغبته الملحة في الذهاب رغم أن الساعة تجاوزت منتصف الليل بكثير. ظن بعضهم أن المشوار وراءه «شو إعلامي» وأنهم سيجدون مصورين في انتظارهم أمام الفرن، لكن ذلك لم يحدث، واتضح أن الأمر ليس وراءه سوى رغبة بريئة من الرئيس في التصرف كمواطن عادي يعشق البسكوت أبو عجوة؛ ربما لكي يؤكد لنفسه أنه لن يتغير أبدا، وهو ما كان يدفعه للكثير من التصرفات التلقائية التي أرهقت طاقم حراسته خلال الأيام الأولى من رئاسته، ودفعت الجهات الأمنية السيادية إلى تكرار تنبيهه إلى المخاطر التي يمكن أن يحدثها ذلك.

في الزيارة الأولى التي قام بها عدد من الكتاب والإعلاميين إلى

قصر الرئيس شكا لهم أنه تم اليوم قطع المياه عنه عمدا فلم يكمل وضوءه، واضطر للتدخل بنفسه لكي يتم إعادة المياه إلى القصر. كانت الواقعة مجرد مثال على حالة من العدائية المبطنة التي كان يشعر بها موجهة ضده من العاملين بالقصر؛ وربما لذلك كان يجد الوَنَس في صحبة القادمين معه من الخارج والذين كانوا يساعدونه على فك شفرات القصر، وتقسيم العاملين فيه إلى قوائم تضم المتعاونين والمتباطئين والمشكوك في أمرهم والميئوس منهم؛ تمهيدا للتعامل مع كل منهم بما يقتضيه الأمر من تدليل أو ترغيب أو إبعاد أو ترهيب. كانت تتملك الرئيس في تلك الأيام حالة من الحذر الشديد جعلته يحضر الاجتماعات التي تنعقد مع كبار رجال الدولة وهو يحمل طبنجة في حزامه، انكشف ذلك عندما عبر ذات مرة بوابة إلكترونية مثبتة في باب وزارة مهمة فأصدرت البوابة صوت تنبيه جعله يشير بتلقائية إلى الطبنجة، لتصبح الواقعة مثارا لتندر قيادات الجهاز الذين تساءل بعضهم حول مدى سرعة الرئيس في استخراج الطبنجة من مكانها إذا وجد نفسه عرضة للاغتيال.

بعد فترة وجيزة من توليه مقاليد الحكم وأثناء سيره في طرقات القصر، توقف الرئيس عند غرفة خالية تجاور مكتبه الرئاسي بها طاولة فخمة وأربعة كراسي أشد فخامة، كان باب الغرفة مفتوحا ربما بالصدفة؛ ولذلك لفتت انتباهه ودفعته لأن يسأل أحد كبار العاملين بالقصر: لماذا لا يتم عقد الاجتماعات في هذه القاعة الملاصقة للمكتب؟ بعد لحظة ارتباك رد عليه موضحا أن هذه الغرفة ليست قاعة اجتماعات بل هي غرفة طعام تم توضيبها خصيصا بناء على رغبة الرئيس السابق لكي يشاركه الغداء فيها زوجته وابناه، وأن هذا

هو سر وجود أربعة كراسي فقط برغم ضخامة الطاولة. أخذ الرئيس ينظر إلى الغرفة متفحصا، شعر مساعده بالقلق للحظة وخشي أن يكون قد أخطأ لأنه لم يلقب الرئيس السابق بالمخلوع، لكن أفكاره قاطعها صوت الرئيس وهو يقول له إنه من الغد يريد أن يُضاف إلى هذه الطاولة كراسي جديدة تلائم عدد أفراد أسرته لكي تتمكن الأسرة من مشاركته الغداء، قبل أن يرفع إصبعه مشددا: «بس عايز الكراسي الجديدة تكون من نفس الخامة اللي معمول بيها الكراسي دي». احتار المساعد في فهم سر ذلك التأكيد، حتى استراح لتفسير زميل له بأن الرئيس لا زال على ما يبدو مستاء من الأجواء غير الودودة التي شعر بها في بداية دخوله إلى القصر، وأنه لا يريد أن يشعر بأنه أقل من سابقه، حتى لو كان ذلك بدعوى الحرص على التقشف وضغط النفقات.

بعدها بفترة، وخلال زيارة خارجية للرئيس إلى عاصمة عربية، وبعد أن أثنت الصحف ووسائل الإعلام على قرار أسرة الرئيس بأن تسافر على نفقتها الخاصة دون أن تصحبه في طائرة الرئاسة، فوجئ المرافقون للرئيس باتصال ليلي يطلب منهم اصطحاب أسرة الرئيس إلى المطار الذي تقبع فيه الطائرة الرئاسية، ظن بعضهم أن هناك رغبة من الرئيس في تسفير أسرته مبكرا على طائرة الرئاسة لوجود ظرف خاص، وأخذ الجميع يضربون أخماسا في أسداس، قبل أن يُتَبين في نهاية المطاف أن الأسرة كانت راغبة فقط في رؤية طائرة الرئاسة من الداخل وتفقدها، وبدأت تُروَى في الأروقة نوادر عن حالة الانبهار التي أصابت ليلتها بعض أفراد الأسرة والتي وصلت إلى ذروتها عندما اكتشفوا وجود «جاكوزي» في حمام طائرة الرئاسة.

الآن وبعد مرور كل هذا الوقت، لم يعد الرئيس يخرج إلى الفرن القريب لشراء البقسماط لأن قصره محاصر طيلة الوقت بالغاضبين، لم يعد يفاجئ حراسه بأي زيارات مفاجئة تخرج على الخطة الأمنية المحددة سلفا، لم تعد المياه تنقطع عنه وهو يتوضأ لأن المقيمين معه داخل القصر أصبحوا أقرب إليه من كل الموجودين خارجه، خاصة بعد أن اختفت تماما كل مخاوف ضغط الإنفاق في ميزانية الرئاسة ومكافآت العاملين بها، لم يعد يلتفت لما يثار في الصحف ووسائل الإعلام حول مظاهر الفخفخة التي تظهر عليه وعلى أسرته، لم يعد يعترض على الموكب الرئاسي الضخم الذي كان يثير تململه في البداية، لم يعد يخشى من قادة الأجهزة الأمنية فقد أصبحوا الأقرب إلى أذنيه وعقله بكل ما يحملونه إليه من تسجيلات وتحذيرات وتخويفات، باختصار لم يعد الرئيس الجديد يجلس فقط على نفس خامة الكرسي الذي كان يجلس عليه الرئيس السابق، فقد أصبح هو نفسه رئيسا من نفس الخامة.

يناير ٢٠١٣

على «تاكسي» في الشارع السياسي

«يا فرج الله، أخيرا لقيت سواق تاكسي منقوعا من أم رأسه حتى أخمص قدميه في بحيرة الوعي السياسي».

هكذا قلت لنفسي وأنا أستمع إلى شلالات الحكمة وهي تتدافع للخروج من فمه: «يا بيه، مبارك إيه ومرسي إيه.. واحد رمانا من على سطح الأرض والتاني دفنًا تحت سطح الأرض.. مش معنى إن عهد ده زبالة إني أحِنّ للعهد اللي أزبل.. أنا مش فاهم الناس اللي تقولك مبارك كان أرحم، عشان كان بيسرقنا بس ما كناش حاسين بحاجة.. أيوه عامل زي اللي بتقولك: اغتصبوني بس كنت متكيفة.. يبقى سيادتك ولا مؤاخذة شرشر مش مغتصبة بقى».

لاحظ إعجابي الشديد بما يقوله فقرر أن يعطيني نبذة مختصرة عن خلفيته السياسية؛ لكي أنقله من خانة رجل الشارع الواعي إلى خانة الواعي الذي شاءت الظروف أن يكون رجل شارع، ويا ليته ما أعطاني تلك النبذة التي بوَّخت حماسي له قليلا: «خُد بالك يا أستاذ فضل، أنا قاري سياسة لما قلت يا بس.. أنا كنت في الأردن عشر سنين على فكرة.. وبعدين أنا مش هاقولك قاري جرايد وكده..

لا، ده أنا وصلت بيا إني قريت ماكافيللي.. آه والله زي ما باكلمك كده.. إنت عارف ساتالين بتاع روسيا لما مسك الحكم أعدم كل أعضاء الحزب الشيوعي.. آه قتل له بتاع خمسة وعشرين مليون، بس في المقابل بنى روسيا الحديسة وما كانش حد غيره يقدر يهزم هتلر.. أمال إيه؟ بص يا باشا مرسي ده عليه غباء سياسي ما حصلش.. وهاقولك على حاجة تدلل لك على كلامي».

قلت، حريصا على ألا يظهر تغيير ما في نبرتي عما سبق: «والله يا أسطى هو كلامك مش محتاج دليل خالص، بس برضه لو عندك حاجة إضافية مش هيخسر أبدا». قال لي بحماس من عقد العزم على إبهاري: «فاكر يا باشا لما طلع مع الجدع اللي اسمه عمرو الليثي، وحكى حكاية الطفل اللي مسكوه بيحدف مولوتوف وأمه قالت لهم إن في حد إداها ميتين جنيه عشان يروح يحدف مولوتوف؟ ومرسي قالك: أنا لما عرفت ده قعدت أعيط.. طب ده اللي يدلك على الغباء السياسي.. صح ولا لأ؟»، قلت: «هو مش بس ده اللي يدلك على الغباء السياسي، في أمثلة أقوى من ده بكتير»، قاطعني: «لا مش القصد، إنت فهمت إيه مشكلتي مع الحكاية دي بالذات؟»، قلت: «يعني أنا مشكلتي إنها حكاية ممكن تكون متألفة أساسا، ومرسي لا شاف الواد ولا أمه أساسا، واللي حكاله هما الأجهزة الأمنية عشان يقنعوه إن كل دي مؤامرة عليه، وما فيش حد بيعارضه ولا حد متضايق من الإعلان الدستوري». ارتبك للحظة لأنه لم يكن قد فكر فيما قلته، لكنه عقد العزم على مخالفتي لإيضاح نقطته التي غابت عن فطنتي قائلا بحماس: «لا، أنا بقى يا سيدي هاصدقه وهاقول إنه قابلها.. بقى إنت ست تحكي لك حكاية زي دي تقوم تعيط؟ هو أنا

جايبك ريس عشان تعيط؟ إنت كنت تقول لها الراجل إدّاكي ميتين جنيه عشان ابنك يحدف ملاتوف، آدي خمسميت جنيه أهُم إديني أم اسم الراجل ومواصفاته عشان أجيبه من قفاه وأمرمط أمه.. صح ولا لأ ياباشا؟».

كانت قد أعجبتني جملة «هو أنا جايبك ريس عشان تعيط؟»، فقررت أن أحتسب له الإجابة كلها صحيحة، وقلت له: «مية مية يا أسطى، الله ينور عليك». شعر أن حجم انبهاري به ليس كافيا فقرر أن يزيد من «الدوز» قائلا: «إنت عارف ياباشا إيه اللي جابنا ورا؟ الإتناشر مرشح اللي كانوا نازلين قصاد مرسي.. يعني بروح أهلك منك ليه، عارف إن في واحد إخوان نازل قصادك ماكنتو تتكتلوا إيد واحدة ورا واحد محترم زي عمرو موسى.. مش كده ولا إيه يا باشمهندس؟». لاحظ علامات الامتعاض بادية على وجهي فقال: «شكلك مش عاجبك كلامي.. وتلاقيك عايز تسألني: إشمعنى عمرو موسى بالذات؟ أنا أقولك: أصل عمرو موسى ده أهم ميزة فيه إنه رجله والقبر.. يعني ماكانش هيخلد فيها.. كان هييجي عشان يختم حياته ختام مشرف ويمشي عدل ويراضي الشعب، وفي الآخر كان شباب الثورة هيعملوا أحزاب ويبقوا أقوياء سياسيًا، وعلى ما ييجي معاد الانتخابات الجاية يبقى في واحد منهم بقى ينفع رئيس».

كان يتحدث بثقة مدهشة جعلتني أسأل نفسي للحظات: «كان ماله عمرو موسى صحيح؟ ما كان أرحم من مرسي والله»، وهو لم ينتظر أن أرد عليه بل طفق وما انفك وما فتئ يواصل تحليله السياسي الذي أنقله بنص عباراته التي ستظل محفورة في ذهني إلى حين حفرها في ذهنك: «مش كان عمرو موسى أرحمّ من شفيق؟ على فكرة أنا كنت

ضد شفيق من الأول مش عشان فلول وفاسد والكلام ده أنا ماليش في الكلام ده.. أنا حصل لي توجس سياسي من شفيق من ساعة ما وافق إنه يشتغل مع مبارك رئيس وزارة بعد ما الشعب ثار عليه.. يعني إنت راجل بقى ماعندكش دماغ سياسي أصلا، أجيبك رئيس إزاي وتقعد مع الصهاينة اللي الواحد فيهم بيكلمك في حاجة وهو بيخيطك في حاجة تانية؟ هي دي مشكلة شفيق معايا.. بس منهم لله ولاد الوسخة اللي طلعوا على عمرو موسى حكاية إنه صاحب مزاج.. إحنا مالنا وماله، إنشالله يبقى فيه العبر.. أنا مالي بحياته الشخصية لو هيحكمني صح.. ده ربنا سبحانه وتعالى قال إيه في القرآن؟ وقالوا ثلاثة رابعهم كلبهم وقالوا أربعة خامسهم كلبهم؛ أنا آسف يعني مش فاكر الآية مضبوط بس في آخرها: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞ﴾.. يعني ربنا نفسه بيقول: أنا الأعلم، يقوم ييجي ناس ولاد كلب يقولك: عمرو موسى بيشرب كحوليات من أيام ما كان سفير.. مع إن الراجل باين عليه طول الوقت إنه راسي وعاقل ولا يمكن يغضب ربنا وعمرنا ما شفناه بيهرتل في الكلام أبدا.. آديهم لبسونا في اللي مالهمش غير في السوبيا والخروب وهيفتقونا كلنا يا أستاذ فضل.. أنا آسف يعني ما تزعلش مني.. الناس دي مش بس هترجع الخلافة، لا هيرجعوا العصر الحجري كمان.. أهي ابتدت بقطع الكهربا وبعد كده البنزين وبكره العربية اللي ماشية بالغاز دي؛ أشحت عشان ألاقي غاز أمشي بيها.. وهكذا بقى يعني مش بعيد الشهر الجاي تركب معايا تلاقيني لافف حتة قماش عشان أغطي بيها بتاعي.. وآخد منك الأجرة بالزلط بدل الفلوس، وكل ده عشان شوية ولاد كلب طلعوا إشاعة حكيرة إن عمرو بيه موسى صاحب مزاج».

كان لا بد أن أطلب منه تغيير الموضوع لكي لا أبكي ندما على ضياع فرصة حكم عمرو موسى لمصر، سألته: «إنت منين يا أسطى؟»، فهم الرسالة جيدا وبدأ يحدثني عن نفسه. ولد في باب الشعرية وترعرع في شبرا ويقضي حياته الآن في بولاق الدكرور، لديه ابن كبير يخدم في موقع ما في الجيش وابنة متزوجة وابن في دبلوم تجارة وبنت في تالته إعدادي، ترك الأردن عن اقتناع لأنه يحب مصر، دون أن يجيب عن سؤال استفهامي لي حول العلاقة بين حب مصر وترك الأردن عن اقتناع، في الأردن كان يعمل سائقا لعائلة «أرستوقراطية»، لكنه قرر أن يعود إلى مصر بعد اكتشافه أن «لسان الواد الكبير ابني إتعوج وبدأ يحكي أردني».

وبعد تنهيدة عميقة طفق يقول لي وهو لا يحاورني: «بنحب البلد دي يا باشمهندس هنعمل إيه بس.. صفيحة زبالة كاتبين عليها من بره: سبعة آلاف سنة، بس بنحبها.. عشان شعبنا جميل ومهما لفيت الدنيا مش هتلاقي زيه أبدا.. بس هو مبارك ابن الذين اللي جابنا ورا.. كان عنده عشر حاجات لو كان ركز فيهم كنا بقينا ولا ماليزيا وسنغافورة دلوقتي»، لم يكن ممكنا أن أفوت فرصة معرفة الحاجات العشر فسألته عنها، فقال لي: «اللي أنا فاكره منهم دلوقتي ستة.. العمالة الخارجية اللي كانت في الدول العربية.. ما استغلش الحرامية اللي في البلد صح»، كان لا بد هنا من وقفة للاستيضاح فقال موضحا: «يعني البلد لما مسكها كانت مليانة حرامية من أيام السادات، ده غير الحرامية اللي جم في عهده.. كان يتفق مع كل واحد فيهم ويقوله: بص خد خمسين في المية أرباح ليك، واديني عشرين في المية، وآدي تلاتين في المية لمصر.. إنما هو كان بيقسم النص بالنص؛ فالبلد ماطلعش بحاجة بعد

كل الليلة دي.. مش كان أحسن ساب الريان والسعد وقسم معاهم بدل ما البلد ماخدش منهم حاجة؟ تالت حاجة طلع لقى عنده أمريكا وروسيا ما عرفش يستغل الحكاية صح.. حدف على أمريكا بس.. مش زي الجهبذ العظيم أنور السادات اللي نشف ريق الأمريكان وقعد يلاعبهم بالروس لحد آخر يوم في عمره».

لم يكن مجديا أن أحدثه عن أن السادات هو من ابتدع حكاية ٩٩ في المائة من أوراق اللعبة في يد أمريكا، وأنه قطع علاقات مصر مع السوفييت وطرد الخبراء السوفييت من مصر شر طردة، فالرجل يحتاج إلى أن يعيش بالمنطق المتماسك الذي يسنده في الحياة، وأنا أحتاج إلى أن أسمع حكايات ممتعة أكثر من رغبتي في سماع تحليلات عميقة كالتي بدأ يركز عليها.. تغاضيت عن شغفي في معرفة الأشياء الثلاثة الباقية التي يتذكرها من الحاجات العشر التي جعلت مبارك يضيع فرصة عمره لإصلاح حال البلد.. وقررت تغيير الموضوع، قلت له: «هي دي عربيتك يا أسطى».

سحب شخرة خفيفة لا يتجاوز قياسها اتنين ريختر في أحسن تقدير بحيث لا يمكن اعتبارها كإهانة أو تجاوز، وقال لي: «هو لو عندي عربية، أنزل أبهدل نفسي في أم الشوارع دي؟ كان زماني قاعد في البيت باقلب في الدش، وممرمط واحد مكاني زي ما صاحب العربية بيمرمطني».. قلت له: «عندك حق الشوارع بقت صعبة قوي».. أضاف: «إنت مكسوف بقى تشتم وكده عشان أنا عرفتك ومش عايزني أقول للناس: بلال فضل اللي بيطلع في التلفزيون ده لسانه زفر أصلا؟ صعبة إيه يا عمنا، قول: بنت مرة.. بنت زانية.. سمِّ الأشياء بمسمياتها يا باشا».

ارتجت العربية من ضحكي بينما قرر هو أن يشاركني في ذكرى أليمة حدثت له منذ فترة قصيرة: «أنا أصلا بقالي تلاتين سنة غير العشرة بتوع الأردن باشتغل بالليل.. كل يوم باشتغل من اتناشر بالليل لسته الصبح.. شغل الليل ده آخر عظمة.. لغاية من كام شهر كده إنت عارف المثل بتاع ما يوقع إلا الشاطر.. وقعت ولا حدش سمّى عليَّ.. تلات عيال من دور ولادي ثبتوني على الدائري.. كان شكلهم غلط من ساعة ما وقفوني في ميدان لبنان.. بس بيني وبينك طمعت.. كان الشغل معقرب يومها قلت: ربنا هو الحافظ.. فجأة يا سيدي واحنا على الدائري ألاقي واد منهم خانقني بتلفيحة من ورا والتاني غازز المطوة في جيبي.. أنا كل اللي شفته ساعتها يا باشا هو منظر صاحب العربية وهو بيسلمني للبوليس بورق الضد اللي كاتبه عليَّ عشان يأمن عربيته.. عمره ما كان هيصدق إن العربية اتسرقت.. ده أنا بينضرب بيا المثل في الذكاوة والدماغ الصاحية.. كان هيقولك: آه ده طمع في العربية ونصّص مع اللي سرقوها.. إنما لاجل رضا ربنا عليَّ طلعوا التلاته ما لهمش في حوار سرقة العربيات.. عايزين فلوس وبس.. طلعت لهم مية جنيه كنت عاملها طول اليوم وقلت لهم: خدوها.. قالوا لي: فين الموبايل؟ أنا بازنقه كده في حتة على شمالي مش عارف ليه عادة اتعودت عليها.. قلت لهم: مامعيش.. ربنا ستر ما حدش رن كانوا قتلوني.. بيني وبينك مش عارف عملت كده ليه؟ هو أصلا بكرتونته كان عامل مية وخمسة وتلاتين جنيه.. أنا ماباحبش أجيب موبايلات غالية.. وكل استخدامي في الموبايل: آلو، أيوه، سلامو عليكو، مع السلامة.. نزلوا وسابوني وأنا عمال أتشهد وأسجد في الأرض من الفرحة.. روحت وقلت: بس اتكتب

لي عمر جديد مش هاسوق بالليل تاني أبدا.. كان عندي أمل في ابن الذين اللي حكمنا ده إن ربنا ياخد بيده ويعدل حال البلد ويرجع لنا الأمن.. عارف لو كان بس عمل حاجتين: رجع الأمن، وحافظ على الأسعار، ده كان يأخون ويدقّن ويزبّب ـ من زبيبة يعني ولا مؤاخذة ـ ويعمل اللي على مزاجه هو وجماعته.. إنما هتقول إيه؟ حظنا وحش يا بيه.. إنما رأيك هيحصل إيه اليومين دول يابيه؟».

قلت له: «والله ما عارف يا أسطى.. إنت بإحساسك كده شايف هيحصل إيه؟».. قال لي: «أنا شايف إنهم هينفضوا يا بيه لغاية مايخش رمضان، وعارفين إن الشعب مالوش في الثورة في الحر والصوم.. وبتوع جبهة الإنقاذ مش مالين عينين الناس، وبصراحة ما تزعلش مني هما عايزين ضرب الجزم هُمّا والإخوان والفلول»، قلت له وأنا أشير بيدي لكي يتوقف وينزلني: «لا وازعل منك ليه؟».. «أم الإخوان على أم الفلول في ساعة واحدة»، صفق بيديه بسعادة شديدة: «حلاوتك كده يا أستاذ فضل جاي تسخن معايا في الآخر ده.. مش كنا اتكلمنا في النسوان أحسن بدل السياسة ووجع القلب؟ خلي عنك خالص النوبة دي.. والنبي ربنا هيكرمنا آخر كرم وبكره هنفتكر الأيام دي ونضحك لما نقول بس، وإحنا بنسأل نفسنا: كنا مستحملين كل الخرا ده إزاي؟ نهارك فل يا برنس».

مايو ٢٠١٣

من محاورات قهوة الكراسي البيضاء

قال لي: يا أستاذ باقولك فكرة حزب الكنبة مذكورة أصلا في القرآن.

قلت له: إزاي دي بقى؟ اوعي تقولي في آية ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾.. مثلا يعني؟

قال لي: لا ودي تيجي برضه يا أستاذ؟ أنا مش جاهل، فكرة حزب الكنبة مذكورة في آية ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾، كنبة دي ولا مش كنبة يا برنس؟

قلت له دون أن أتورط في أي مناقشة جادة لما قاله من عبث: يعني معقولة كل اللي حصل في البلد خلال السنتين والنص اللي فاتوا، ما قدرش يحرك جواك أي رغبة إنك تنزل بنفسك للشارع بدل مانت قاعد تحدف طوب من لسانك على الكل وتشتم في كل حاجة حواليك؟

قال لي: إزاي أنا اتعلمت كتير جدًا، واتغيرت كتير جدًا.

قلت له: بجد؟ يعني هتنزل مع اللي نازلين يوم ٣٠ يونيو؟

قال لي: لأ، بس لو اللي نازلين شالوا الإخوان هاغني لهم من قلبي غنوة أنغام «شلتوا عن عينيا الستاير وإحنا ليكو ممنونين»، ولو فشلوا هاغني لهم من قلبي غنوة حمادة هلال الجديدة.

قلت له مستغربا: أنهي غنوة؟

قال لي: شهداء تلاتين يناير ماتوا في أحداث يناير وفضل منهم شوية عايشين ماتوا في أحداث يونيو. (بالمناسبة محاوري ليس جاهلا بالمرة كما قد تظنه، بل هو رجل متعلم يستند في موقفه السياسي إلى نظرية بيولوجية متكاملة مفادها أن الصرصار أعظم مخلوقات الله؛ ولذلك فهو يؤمن أن هناك جنة ونارا مخصوصتَيْن للحيوانات، وأن الصرصار سيدخل الجنة بينما الديناصور سيدخل النار لفشله في البقاء على قيد الحياة).

بعد أن رحل عن القهوة أخذت أفكر فيما دار بيننا من حوار، لكنني لم أهنأ بلحظات الهدوء حتى قاطعني رجب الجرسون قائلا: إنما إيه اللي هيحصل في تلاتين ستة يا برنس؟ رددت برغبة حقيقية في قطم الحوار: العلم عند الله. تجاهل رغبتي برغم وضوحها وعاجلني بأسئلة متلاحقة: «يعني مين اللي هيتخيط المرة دي؟ الثوار هيخيطوا الإخوان، ولا الإخوان هيخيطوا الثوار، ولا الفلول هيخيطوا الاتنين، ولا الجيش هيخيطهم كلهم ويرحمنا؟». (لكي تصل إلى فهم حقيقي للأسئلة، ينبغي أن تعلم أن رجب من معتنقي الأفكار الفرويدية بشكل واضح وصريح يجعله يعتقد أن الحياة ليست إلا تخايطا جماعيًا بين الناس، هو الذي يؤدي في النهاية إلى تقدم حركة التاريخ).

قلت له وقد فقدت رغبتي في النقاش: باقولك إيه يا رجب؟ أنا

جاي هنا عشان أفضي دماغي شويتين، وقلت لك: العلم عند الله، المهم إنك تنزل وتعبر عن رأيك لو كان عندك رأي.

رد عليَّ بهدوء شديد: لا، وأنزل ليه يا عمنا؟ مانا واللي زيي بنتخيط كل مرة، فأتخيط وأنا في بيتي أحسن.. ما فيش أحسن إن الواحد يتخيط بكرامته.

ثم رحل رجب نحو عمق القهوة وتركني أتأمل كيف سار مجرى التاريخ على ما سار عليه وصار إليه فقط؛ لأن ملايين البشر اعتنقوا منذ الأزل مذهب رجب الفلسفي الذي يتلخص في عبارته الخالدة «ما فيش أحسن إن الواحد يتخيط بكرامته».

يونيو ٢٠١٣

اركب مع الثورة!

كتبت مرة على (تويتر) أقول: «بعض النشطاء يقيِّمون موقف الشعب من الثورة بناء على سائقي التاكسي الذين يركبون معهم، فيتضح أنهم مؤيدون للثورة بحماس شديد، وينسون أن لدى سائقي التاكسي موهبة في تقييف الآراء حسب رغبة الزبون تنافس موهبة فتحي سرور في ذلك»، وبعدها قرأت تعليقا ألطف كتب قائله: «يغيظني بشدة النشطاء الذين يكتبون أنهم مندهشون لأنهم ركبوا مع سائق تاكسي، ولم يقل أي رأي عن الثورة». بصراحة لست من المتحمسين لتقييم موقف الشارع من الثورة بناء على آراء سائقي التاكسي، ليس لأنني أتخذ موقفا سلبيًا منهم؛ بل لأنني لم أعد أركب التاكسي كثيرا منذ أصبحت لديَّ عربية.

يعتقد البعض أن ظاهرة انشغال سائقي التاكسي بالهم السياسي ظاهرة محلية بحتة، والحقيقة أنها ظاهرة عالمية تؤرق كل ركاب التاكسي في شتى بلاد الدنيا. هناك عبارة شهيرة للكوميدي الأمريكي جورج بيرنز تقول: «من المؤسف أن كل من لديهم خطط رائعة لحكم البلاد مشغولون بالعمل كسائقي تاكسي أو حلاقين»، لكن للأمانة كلما تصادف أن ركبت مع سائق تاكسي بسبب ظروف تخص

سيارتي، وجدت لديه وجهة نظر تستحق التأمل، أو وجدته «مشغّل الكاسيت» بصوت عالٍ يعفيني من تأمل أي وجهة نظر له.

نادرا ما أركب مع سائق تاكسي وأجده يتعرف على شخصي الكريم، وهو ما يشي بانشغال غالبية السائقين في لقمة العيش بعيدا عن صخب الفضائيات، وهو أمر كان يمكن أن يكفل لهم نقاء وجدانيًا وبراءة سياسية تجعلهم مصدرا رائعا للحكمة، لكنهم للأسف يمتلكون حصيلة معرفية فتاكة تعتمد على سلاح الدمار الشامل المعروف باسم «ركب معايا واحد وقالي».

عقب خلع مبارك ركبت مع سائق تاكسي قال لي إن أحد أعضاء المجلس العسكري ركب معه وقال له إن مبارك سيعود للحكم الشهر القادم بعد ما نلم كل العيال اللي عاملة قلق في التحرير. لم أسخر من كلامه لأنه كان فظًا غليظ القلب فانفضضت من نقاشه وسألته فقط: هو إنت شفت شكله قبل كده في التلفزيون مع بتوع المجلس العسكري؟ فرد بجدية: وهو أنا يا بيه فاضي للتلفزيون زيكو.. أنا راجل باشقى على لقمة عيشي. تجاهلت اللمزة البادية في كلامه وسألته: طيب، هل كان لابس بدلة جيش عليها رتبة لواء؟ رد بتلقائية: لا، الصراحة هو كان لابس ترينج. تجاهلت البلاهة الطافحة من إجابته وسألته: ممكن كان رايح نادي من بتوع الجيش وعشان كده نازل بالترينج.. يبقى أكيد قال لك بنفسه إنه عضو في المجلس العسكري، قال لي: بصراحة الكدب خيبة، بس هو شكله راجل ليه هيبة جاله تلفون وكان عمال يقول للي بيكلمه: أنا جاي من المجلس حالا.. قعدنا كتير في المجلس.. هاروح بكره اجتماع المجلس..هو يا بيه في مجالس شغالة اليومين في البلد غير المجلس العسكري؟ مت من الضحك يومها، وظللت أروي

الواقعة كثيرا لأصدقائي متندرا، قبل أن تجعلني تطورات الأحداث أحكيها بوصفها خبرا جادًا، بل وأسأل نفسي: يا ترى يا هلترى من كان عضو المجلس الذي ركب مع السواق إياه؟

بالأمس كان لديَّ مشاوير متعددة منذ الصباح الباكر، ركبت من أجلها أكثر من خمسة تاكسيات؛ ثلاثة منها كان بها زبائن يكرهون الثورة، وركاب الاثنين الباقيين كانوا يكرهون الثورة ويكرهون أنفسهم أيضا، لو كنت من هواة الاستسهال الثوري لوصفت التاكسيات الخمسة التي ركبتها بأنها ليست سوى لجان إلكترونية متنقلة بين أحياء القاهرة أو غرف عمليات للثورة المضادة. لي صديق يعتقد جادًا غير هازل أن رجال أعمال تابعين للحزب الوطني يمتلكون ثلاثة أرباع تاكسيات المدن الكبرى وبيجوهات الأرياف، وأنهم يقومون بدفع مرتبات آلاف الركاب الذين يركبون الأتوبيسات والميكروباصات بانتظام، ويتكبدون مبالغ طائلة في سبيل نشر دعاية مضادة للثورة، بينما الحقيقة أن ما يقوله أغلب راكبي المواصلات ورواد المقاهي وساكني الكنب من كلام مضاد للثورة وكاره لها ليس سوى حاصل جمع فشل سياسات محمد مرسي، وحكومة الخشب المسندة التي تدفع الثورة أخطاءها، زائد طيش وعصبية بعض الوجوه الثورية التي لا تعي أن دفاعك عن قضية نبيلة لا يكفي لكي تكسبها، بل لا بد أن تكون هادئا وذكيًا ومطمئنا للناس، وإذا أضفت إلى كل هذا خليطا إعلاميًا يقوم بعضه بمداعبة غريزة الخوف لدى الناس على طريقة أفلام الرعب، ولا ينشر كله الأمل والتفاؤل والمعرفة بين الناس لعلهم يفرقون بين ما تتحمل مسئوليته الثورة وما يتحمل مسئوليته الذين ركبوا عليها، عندما يتوفر كل ذلك، فأنت لا تحتاج بعده إلى أن تدفع مليما من أجل أن يقوم سائقو التاكسي وركاب الميكروباصات بتشويه الثورة.

بصراحة لو كان خَلْقُ رأي عام لا يناهض الثورة يتوقف على سائقي التاكسي وحدهم دون غيرهم، لكان الحل أن يلجأ ائتلاف شباب الثورة إلى رجل الأعمال ممدوح حمزة لكي يشتري خط تاكسيات يسميه (تاكسي الثورة)، ويتم تشغيله في شوارع المدن الكبرى بأسعار رمزية ويقوده قادة الائتلاف ويركب إلى جوارهم أعضاء الائتلاف لكي يحببوا الناس في الثورة ويضخوا الدماء في شرايين الثورة المرهقة. إذا ظننت أن هذا الاقتراح هزار لا يليق في موضع الجد، فدعني أقل لك إنه إذا كان يحكمنا على الدوام حاكم مصمم على أن يمارس مع نفسه ومع البلاد بأكملها لعبة الروليت الروسي بإصراره على العناد وعدم التغيير واستمتاعه بلعبة الاستقطاب وعدم الحسم التي تكفل له انتشار حالة الفزع بحيث يبقى هو طوق النجاة الوحيد في نظر الملايين، وإذا كان لدينا إعلام يعتمد على «إنديكس» الموبايلات التي يمتلكها مائة معد برامج هم الذين يشكلون خريطة الرأي العام في مصر، وإذا كان لدينا تيارات إسلامية تظن أن الشريعة الإسلامية يمكن أن يتم تطبيقها بالصمت على الظلم، مع أن الشريعة في جوهرها انحياز ضد الظلم والنطاعة وعبادة الأسلاف وإسناد الأمر إلى غير أهله، وإذا كان لدينا نخبة مهترئة تظن أن الحريات العامة والخاصة يمكن أن يتم تحققها دون الحاجة إلى معارك فكرية وثقافية وتربوية طويلة الأجل، فبصراحة اقتراح تاكسي الثورة أجدع وأكثر فعالية وأسهل تنفيذا، على الأقل الركوب مع الثورة أرحم من ركوب الثورة ذات نفسها.

٢٠١٣

حكاية أثناء النوم

وهكذا أيها السادة المشاهدون قرر بطل الفيلم بعد شهور من اللت والعجن والكر والفر واللف والدوران، أن يبني للبطلة خازوقا طويلا يمتد إلى «عنان» السماء، ويضع لها عليه علما صغيرا لا يتناسب مع طول الخازوق، وفيما هي تشرئب ناظرة إلى العلم سائلة نفسها كيف قام البطل بتدبير تكلفة ذلك الخازوق المعدني القميء بينما يشكو لها كل دقيقتين من قلة المال وسوء الحال، فوجئت بالبطل يسدد إلى جنبها جسما صلبا ظنته في البدء خنجرا، لكنه عاتبها على سوء ظنها، وقال لها إن ذلك الجسم الصلب ليس سوى «وثيقة مبادئ للحياة المشتركة القادمة بينهما» يرغب أن توقع عليها بشكل سلمي ودون مماحكات، وهي رأت أن الكلام به نبرة تهديد فاستاءت بشدة، فقال لها إنه ـ معاذ الله ـ لا يهددها، بل يريد أن يحميها من أخطار محدقة بها، قالت البطلة بابتسامة مرهقة: « تحميني تاني.. ده أنا لسه ما نشفتش من الحمومة الأولى»، لم يبتسم البطل وتعامل مع مداعبتها على أنها قلشة عابرة، أخذ يذكرها بكل ما تعرضت له من مضايقات طيلة الأشهر الماضية على يد شرير الفيلم عكرمة الذي يقصر جلابيته ويطيل ذقنه ولسانه، قائلا: إن كل ما تعرضت له يهون إلى جوار ما يمكن أن تراه على أيدي

عكرمة ورفاقه الذين لا يمكن أن يردعهم عنها إلا هو، ذكّرها بأن لغة الحوار لم ولن تكون مجدية أبدا معهم، فالحوار ـ كما يفهمونه ـ أن تردد نفس آرائهم بقدر بسيط من التعديل، أما أن تقول رأيك كما تراه فأنت إذن تستحق الويل والثبور وعظائم الأمور.

حاولت البطلة أن تخفي ارتعادها مما قاله، ثم قالت: «طيب، وما هي مصلحتك التي ستجنيها من وراء حمايتي؟ أرجوك لا تقل لي إنك تفعل ذلك من أجلي، وإنك تحبني.. فقد ثبت لي طيلة الأشهر الماضية أنك تفهم حبي بطريقة مختلفة تماما عن الطريقة التي أتمناها». رأته صامتا وعلى فمه ابتسامة مرتبكة فتشجعت قليلا وقالت بصوت بدا أقرب إلى الغمغمة لكنه أخذ يتصاعد حتى كاد يصبح صراخا هادرا: «أنت في الواقع لا تحب إلا نفسك.. لو كنت تحبني لحققت لي كل ما أتمناه لعلك تُكفِّر عن سيئات صمتك الطويل، وأنت تراني أُنتهك وأُهان دون أن تمد لي يد العون.. وعندما خاصمتُ صبري وانفجرتُ في وجوه ظُلّامي ظللتَ واقفا على الحياد طويلا قبل أن تنحاز إليَّ.. ورغم أنني شككت في نواياك إلا أنني لم أكن أملك بديلا آخر غيرك.. لم أكن بلهاء كما ظننتني.. أعلم أنك لا تشبهني ولن أشبهك.. عندي عليك ألف تحفظ وتحفظ.. لكنني أعلم ظروفي جيدا.. أعلم حظي العثر الذي سلمني لمجموعة من اللصوص والقتلة والطغاة كنت دائما تحميهم.. أعلم موقعي من العالم الذي يفرض عليَّ أن أتحرك بحذر وحيطة.. أعلم أنني لا أمتلك إرادة قوية ولا استقلالا حقيقيًا ولا موارد غنية.. كان أملي فيك كبيرا أن تنقذني وتحميني.. وكنت أراك دائما تتعثر وأنت تحاول حمايتي.. فأسأل نفسي: هل يعجز عن حمايتي، أم أنه لا يرغب في

ذلك؟ هل يعقل أن يهدر فرصة عمره في اكتساب ثقتي التي قررت أن أمنحها له على طبق من ذهب؟ لماذا يفعل هذه الأفعال المريبة؟ لماذا يقف صامتا وهو يرى عكرمة ورفاقه يعربدون بينما يقسو على أبنائي المحبين وينتهك حرياتهم؟ هل هذا فشل، أم تآمر؟ عذبتني الأسئلة طويلا، وعذبني أكثر أنني أعلم مرارة إجاباتها، وأنني أدرك ندرة اختياراتي وصعوبتها.. قررت أن أصمت وأصبر حتى يأتي من ينقذني من بين يديك بما يرضي الله.. فيحقق لي أحلامي ومطالبي ويعاملني على أنني ملكة متوجة بدلا من أن يهينني ويستنزفني كما ظللت تفعل ولا زلت.. لا تقل لي إذن إنك تريد أن تحميني لوجه الله.. اكشف أوراقك وقل لي: أين ستكون مصلحتك في هذه الوثيقة؟».

ضحك البطل ضحكة عصبية وقال لها: «طيب وماله، لنلعب إذن على المكشوف.. الحكاية وما فيها أنني بموجب هذه الوثيقة سأحميكِ من عكرمة ورفاقه.. سأجعلك تختارين بعلا لكِ كما تحبين.. سأحمي حياتكِ معه لكي تعيشي في سعادة وهناء»، صرخت قائلة: «في مقابل ماذا؟»، تجاهل ثورتها وقال: «لقد كتبت في هذه الوثيقة بندا يقول: إنني أنا نفسي ملك لك.. لكن ليس من حقك أن تأمريني بشيء لا أنتِ ولا البعل الذي ستختارينه.. ليس من حقك أن تعرفي ما سأحصل عليه من أموال أقتطعها من ثرواتك لأحميكِ.. ليس من حقك أن تحاسبيني كيف أنفق تلك الأموال.. ليس لأنني طمعان فيها بل لأنه لن يعرف أحد مصلحتك أكثر مني.. ليس من حقك أن تأمريني بأي شيء؛ فقرار الدفاع عنك ضد جاراتك الطامعات فيكِ أنا وحدي الذي أتحمل تضحياته ولذلك من حقي وحدي أن أتحكم في تفاصيله»، قالت له والأرض تدور بها: «لكنك قلت منذ

قليل إنني ملك لك، فكيف تكون ملكا لي ولا يكون من حقي أن آمرك بشيء أو أن أحاسبك على ما تناله من ثرواتي؟ هل تكذب عليَّ، أم تكذب على نفسك؟ لماذا لا تجعلني أعاملك كما تعامل كل البطلات أبطالها.. تحترمه وتهابه وتجل تضحياته، لكنها تراقبه وتحاسبه لكي لا يفسد؟ ألا ترى إلى جاراتي الطامعات كيف يعاملن أبطالهن بكل احترام، لكنهن لا يتركن له الحبل على الغارب ليفعل ما يريد وقت ما يريد؟ ألا أستحق أن تعاملني بنفس الطريقة؟».

هَبَّ واقفا من جوارها وهو ينتفض غضبا، رأت في عينيه نظرة مخيفة لم تعهدها من قبل ولم ترها في عينيه طيلة الأشهر الماضية، قال لها وهو يرفع إصبعه الذي طالما حذرها به: «أنت حرة.. إما أن تنصاعيَ لكل ما أطلبه وتقبلي بحرية منقوصة، وإما أفتح لك باب الفوضى على مصراعيه وسينحاز كل أبنائك المرهقين المكدودين إليَّ لأنهم يعلمون أنني ملاذهم الأخير»، وجدت نفسها تكتسب قوة لم تعهدها من قبل جعلتها تنهض صارخة فيه: «أنت واهم.. ربما تفرض إرادتك الآن وربما غدا.. لكنك لن تفرضها إلى الأبد.. أنت تنسى أن أبنائي تحرروا ولن يعودوا ثانية عبيدا لمخاوفهم.. أنت الآن ترتكب خطأ جسيما في حق نفسك عندما تفتح أبواب الشكوك على مصراعيها وتتحدى جيلا عرف الطريق.. أنت تنسى أننا لم نعد نعيش في العالم القديم الذي أدمنت الحياة فيه.. صدقني إذا اغتررت بقوتك وبإرهاق أبنائي فلن يدوم ذلك طويلا.. أنت لا تدرك أنهم تغيروا إلى الأبد ولن يقبلوا بحرية إلا ربع.. لن أخاف من تهديدك لي بعكرمة ولا بغيره.. فأنا قادرة على أن أنتزع حريتي غير منقوصة؛ فقد دفعت ثمنها غاليا وليلعني الله إن فرطت فيها ثانية».

وقف البطل مذهولا أمام روح التحدي التي فاجأته، اقتربت البطلة منه وقالت له بهدوء: «لا تتصور أنني أجهل لماذا تفعل كل هذا.. لا تتصور أنني غافلة عما تفكر فيه.. أرجوك لا تقف في طريق سعادتي ولا تتحداني؛ لأن من حاولوا ذلك قبلك خاب سعيهم.. لا تقف عقبة في طريق مستقبلي الذي هو مستقبلك أيضا.. وتأكد أنني سأكون قادرة إذا حققت مطالبي على إقناع أغلب أبنائي أن يغضوا الطرف عن أشياء كثيرة فعلتها في الماضي.. لا تنسَ أنهم وثقوا بك من قبل فخذلتهم.. لا تخسرهم إلى الأبد فتضيعهم وتضيعني معهم.. لا تجعلنا نخسر فرصة العمر من بين أيدينا فقد لا تأتي ثانية»، التقطت البطلة أنفاسها ثم قررت أن تترك البطل يواجه نفسه قليلا، لكنها قبل أن تغادر المكان أشارت إلى الخازوق وقالت للبطل باستياء بالغ: «وأرجوك من فضلك ما تعملش الحاجات دي تاني».

يوليو ٢٠١١

(نُشِرت عقب احتفال المجلس العسكري بنصب خازوق معدني عملاق بالقرب من برج الجزيرة، قيل إنه يحيي ذكرى ثورة يناير، ولم يفهم أحد وقتها علاقة الخازوق العملاق بثورة يناير إلا بعد أن تم نزع الخازوق في صمت عقب تولي المشير عبد الفتاح السيسي لرئاسة البلاد).

البصبصة الوطنية!

في السنوات الأولى من حكم الرئيس مبارك ابتهلت السيدة ياسمين الخيام إلى الله بأن يكثر أفراحنا وأن «يدينا على قد نيتنا»، ودارت الأيام ومرت الأيام واعتزلت السيدة ياسمين الغناء لأن من الطبيعي أن يعتزل المطربون ويبقى الحكام، لكن الأيام أكدت لنا أنها كانت تغني في ساعة استجابة فقد أعطانا الله على قد نيتنا من وَسَع وأكثر من أفراحنا لدرجة أننا أصبحنا نخرج من عرس لندخل إلى عرس جديد؛ فصارت أيامنا كلها بفضل حكمنا السعيد أعراسا في أعراس.

تخيلوا معي لو أن سائحا أجنبيًا جاء إلى بلادنا لأول مرة وفتح تلفزيوننا الوطني ليرى تلك الفرحة العارمة التي تملؤه إلى حوافيه، ولنفترض أنه أحب أن يشاركنا فرحتنا وسألنا عن المناسبة التي نحتفل بها، ما الذي سنقوله له؟ تعالوا نسأل أنفسنا فعلا: لماذا نحن فرحون هكذا؟ هل نقول له لأننا اكتشفنا أخيرا اختراعا اسمه الانتخابات المتعددة، فخضناها لنأتي فيها برئيسنا الذي كان يحكمنا ٢٤ عاما ليواصل حكمنا ست سنين أخرى، وبماذا سنجيبه عندما يقول لنا: وما الذي يدعو للفرحة هنا؟ هل نقول له إننا فرحون لأننا كنا نحتاج

إلى أربع وعشرين سنة لكي نكتشف جوهره ونتلو برنامجه الانتخابي حق تلاوته وندرك أننا نحن الذين لم نعطه الفرصة لكي يحكمنا جيدا خلال السنوات الماضية. هل نحن فرحانون لأننا عملنا انتخابات مزورة وملعوبا في شرعيتها؟ طيب عملناها كثيرا قبل ذلك، فلم الفرحة الآن مجددا، أم نحن فرحون لأن رئيسنا حصل بالانتخاب على أكثر مما كان يحصله بالاستفتاء، لأن شعبنا رفض أن يأكل سمك الدكتور غزال، أو يلبس طربوش الصباحي، أو يستظل بشجرة عائلة الدكتور شلتوت؟

لماذا نحن فرحون هكذا يا قوم؟ دعونا من السائح الأجنبي وتعالوا نسأل أنفسنا. حتّام نظل نعتقد أن الوطنية هي أن نفرد مئات الأمتار من القماش على الكباري ونلوح بعلم مصر للكاميرا متصنعين الخشوع أكثر؛ لكي نحصل على مكافأة أكبر من مدير الإنتاج؟ وأين هي الوطنية في التغني لمصر بكلمات مرصوصة بلهاء لا روح فيها ولا طعم لها ولا رجاء منها؟ ومتى ندرك أننا لو توقفنا عن سرقة مصر وتخريبها بربع مقدار ما نغنيه لها لأصبحت بلادنا جنة الله في الأرض؟

لقد وصل بنا الحال إلى أن يغني المطرب هيثم شاكر في الأغنية التي تكرم نجل السيد كمال الشاذلي بإهدائها للتلفزيون المصري قائلا لمصر: «باحبك غصب عني.. أصلي تربيت في خيرك»، وهو اعتراف لو قاله أي شخص لوالدته مثلا لاتهمته بأنه واطي؛ لأنه يحبها غصبا عنه مع أنه تربى في خيرها. ويبدو أن الشاعر محمد رفاعي كاتب الأغنية أدرك ذلك فحاول أن يصلح الأمور مع مصر ليقول لها بيقين مطلق: « يا بلدي يا حتة مني.. عمري ما بصيت لغيرك»، ليكون هذا البيت الشعري الآيل للسقوط إعلانا عن مدرسة جديدة

في الوطنية هي «مدرسة مكافحة البصبصة» التي ترفع شعار «إوعى تبص لغير بلدك» فقد اتضح للشاعر أن مشكلتنا كمصريين أننا نبصبص لغير بلدنا كثيرا، مع أن بلدنا حلوة ومدورة وشكلها على الخريطة جميل جدّا، كما أشار المرحوم نجيب سرور.

إن الشاعر هنا يحذر الشاب المصري المحبط من تأخر سن الزواج بأن البصة لوطن آخر سهم مسموم والبصة الأولى له والثانية عليه، ويدعوه لأن يقطع على نفسه عهدا أمام مصر بألا يبص لغيرها أيّا كانت المغريات، ولو حدث وأخطأ فعليه أن يذهب إليها سريعا ليقول لها: «أنا آسف يا مصر، أصل امبارح كنت تعبان قوي فبصيت لكندا»، ولأن مصر قلبها طيب ومسامح مع الحرامية والظلمة والمزورين، فما بالك مع واحد من أبنائها المخلصين؛ لذلك حتما سترد عليه وهي تكظم غيظها قائلة: «مسامحاك يا مواطن، بس حسك عينك تبص لحد غيري تاني خصوصا أستراليا؛ عشان أنا حاسة إنها حاطة عينها عليك بقى لها فترة».

٢٠٠٦

من يوميات سائح حسن النية.. سيئ الحظ!

السبت: يومنا الأول في مصر كان لا بأس به، زوجتي جودي أحبت «هنا» أكثر مني، الحرارة كانت خانقة، لكن النسيم عندما يأتي يكون الجو معقولا، الأسعار أرخص من بلاد كثيرة زرناها من قبل، الفندق كان يمكن أن يكون محتملا لولا انقطاع الكهرباء كل ساعتين تقريبا. صحيح أن هناك مولدا كهربائيّا يعمل لكنه ليس مؤهلا لتشغيل التكييف، عندما أبديت اعتراضي على الأمر نصحني موظف الفندق ـ بلهجة لم أحسم إذا كانت تهكما أم شكوى ـ بتجريب الفنادق الغالية لأن الكهرباء لا تنقطع فيها أبدا. قرأت قبل أن آتي عن الزحام العبثي والتلوث الخانق وقذارة الشوارع وأفواج المتسولين التي تحاصرك أينما اتجهت؛ لذلك لا يمكن أن أقول إنني فوجئت بذلك، على العكس بدا لي المتسولون هنا أخف ظلّا وأكثر كبرياء من زملاء مهنتهم في الهند مثلا، لكنَّ هناك شيئا وحيدا لم أفهمه: لماذا يحاول كثيرون هنا أن يتحسسوا جسد زوجتي جودي بدعوى الترحيب بها؟

علي، مرشدنا السياحي الشاب ارتبك عندما طلبت منه تفسيرا للظاهرة، ثم قال بنبرة حاول أن تكون مقنعة: إن الأمر له علاقة برغبة

المصريين الدائمة في التواصل الحميم، وإن حكاية التلامس ليست مسألة مستهجنة هنا، بدليل أنك يمكن أن تجد رجلين ينهالان على بعضهما بالقبلات والأحضان في وسط الطريق دون أن يثير ذلك اهتمام أحد. أعترف أنني ارتبكت عندما رأيت المشهد لأول مرة، فقد ناقض ما كنت قد قرأته من تحذيرات للمثليين الراغبين في زيارة مصر، لكنني فهمت من كلام علي أن القبلات متاحة للرجال طالما لم تكن فموية، والأحضان لا بأس بها على الإطلاق طالما لم تمتد الأيادي إلى المؤخرة، لكن لماذا إذن حاول أكثر من شخص تحسس مؤخرة جودي؟

ما يزعجني أن جودي لا تبدو منزعجة من ذلك، عندما قلت لها إني أشك في نوايا الكثيرين ممن يحتضنونها وهم يطلقون عبارات الترحيب بإنجليزيتهم الركيكة، لقد اعتبرت ذلك إطراء لها، مضيفة أنها تفضل دفء الشرق على بلادنا التي أصبحت تحتاج إلى رفع لافتة «أحضان مجانية» لكي تتواصل جسديًا مع الآخرين.

الأحد: يبدو لي بعد ثاني يوم من التجول في شوارع القاهرة أن المصريين يحبون رئيسهم مستر سيسي كثيرا، أينما اتجهت أرى صورا له معلقة على كافة الحوائط؛ بعضها بملابسه العسكرية، وبعضها بملابسه المدنية وهو ينظر نحو اتجاه غير معلوم مبتسما ابتسامة غامضة، رأيت صورة له لم أفهمها تم فيها تركيب رأسه على جسد طائر قال عليّ إنه نسر، وصورة أخرى له وهو يمتطي أسدا، علي قال إن المصريين يعشقون مستر سيسي؛ لأنه خلصهم من احتلال مجموعة إجرامية من المصريين تسمى «الإخوان» وقام بإبادتهم من الوجود، ولذلك منحه المصريون رتبة المارشال وعلقوا صورته في كل شبر،

علي غضب عندما قلت إنني أعرف أن رتبة المارشال تمنح لمن يخوضون الحروب العسكرية مع الأعداء، فكيف تم منحها إذن لمستر سيسي لمجرد أنه قضى على مجموعة من الخارجين على القانون؟ وغضبه ازداد عنفا عندما استغربت مصطلح إبادة الذي استخدمه علي وقلت له إنه يذكرني بما فعله هتلر مع اليهود، ونصحته إذا كان يحب مستر سيسي ألا يستخدم هذا التعبير علنا لأن شيوع هذا التعبير يمكن أن يورط مستر سيسي. استغربت انفعال علي الشديد وقوله بعصبية إن أمثالي من الغربيين لا يفهمون حقيقة ما يجري في مصر التي تتعرض لمؤامرات دولية من الغرب الذي يكرهها، حاولت تهدئته بأن أؤكد له أنني أرغب في الفهم فقط وأنني لو لم أكن أحب مصر لما جئت لزيارتها برغم أن كل مواقع السياحة لا تنصح بذلك هذه الأيام.

جودي قاطعتني راجية ألا نتحدث في السياسة، وطلبَت من علي أن يقوم برفع صوت أغنية مزعجة راقصة الإيقاع تنبعث من كاسيت السيارة وبدَأت في التمايل مع رفيقة رحلتنا ستيفاني التي تحلم بأن تتعلم الرقص الشرقي بعد تقاعدها. عندما نزل علي لشرب سيجارة بعيدا عنا، استدار سائق السيارة التي كانت تحملنا في طريقها إلى الأهرامات العظيمة، وطلب منا ألا نصدق «عليّ» لأنه مختل يؤيد سفّاحا قام بقتل حوالي ألف مصري في يوم واحد وهو ما لم تفعله حتى إسرائيل مع الفلسطينيين، قبل أن يقوم بعصبية برفع أربع أصابع من يده اليمنى ويلوح بها في وجوهنا بشكل أفزع جودي التي مالت عليَّ ورجتني ألا أفتح فمي بكلمة مع أحد؛ لأنني كلما فتحته لا أجلب سوى المشاكل.

استجبت لجودي واحتفظت بتساؤلاتي لنفسي، حتى عندما زادت

بعد قليل تساؤلا جديدا، حين قال عليّ معتذرا: إننا لن نتمكن من زيارة الأهرامات اليوم؛ لأن «الإخوان الأوساخ» قاموا بقطع الطريق المؤدي إليه لكي يقوموا بضرب السياحة. علي فهم بالطبع سبب ملامح الدهشة على وجهي، فأضاف بحماس: إن مستر سيسي قضى على قادة الإخوان لكن هناك الكثيرين منهم لا زالوا على قيد الحياة خارج السجون، وإن ما يمنع مستر سيسي من إبادتهم هو الغرب الذي لا يكف عن ترديد شعارات حقوق الإنسان، مع أنه يقتل الكثيرين عندما يكون ذلك في مصلحته، وإن الشيء الوحيد الذي يغضبه من مستر سيسي هو أنه لا يريد أن يستجيب لرغبة ملايين المصريين في إبادة الإخوان عن بكرة أبيهم. بدا لي أن «عليّ» لم يفهم شيئا مما سبق أن قلته له، فقررت أن أسكت، لكن جودي هي التي تكلمت ربما لكي تخمد رغبتي في الاعتراض قائلة بابتسامة عريضة بلهاء: «المهم أن يكون المصريون سعداء بما يفعله مستر سيسي».

الاثنين: يوم جديد آخر من الزحام والعرق والذباب والضوضاء والملل الرهيب والقبح المنبعث من كل اتجاه والاستماع إلى الهراء الذي لا يكف عن التدفق من فم علي، لا جديد يمكن أن يقال اليوم، ولا شيء يبهج سوى أن غدا هو الأخير لنا في هذه المدينة التعيسة.

الثلاثاء: لم يرافقنا علي اليوم، قالوا لنا في شركة السياحة إن أخاه الأصغر قُتِل بطلق ناري في مظاهرة وهو خارج من الجامعة، عندما سألت عمن قتله، قاطعتني جودي قائلة بارتباك: «هذا ليس مهمّا، فقط أبلغوه تعازينا»، قررنا أن نقضي وقتا حرّا بمفردنا إلى أن يأتي مرشد جديد ليصطحبنا مساء إلى جولة ختامية في القاهرة القديمة.

غدا سنذهب إلى شرم الشيخ، أنتظر ذلك بفارغ الصبر لكي يعوضني من تجربتي البائسة، جودي البلهاء تسير فرحة بالنظرات التي يصوبها المارة إلى جسدها، بعد يوم واحد أدركت أن هذا ليس إطراء لجودي كما تتصور، شاهدت رجلا يمد يده ليتحسس مؤخرة امرأة تغطي كامل جسدها بالسواد، لم أخبر جودي بذلك طبعا، ستتهمني بأنني أغار منها لأنها تشعر بسعادة عارمة.

تجولنا في شوارع المدينة على غير هدى، نختار من الشوارع أقلها زحاما وقبحا، الجو اليوم كان جيدا مقارنة بالأيام الماضية، تمنيت أن يكون اليوم ختاما جيدا لأيامنا في القاهرة، لكني لم أكن قد صادفت بعد تلك المصيبة التي يخبئها لنا القدر. كنا نسير في شارع يحاذي نهر النيل، ومع ذلك لم نتمكن من رؤية النيل إلا بصعوبة بالغة بسبب المباني ذات الأسوار العالية التي تحجب رؤيته، عندما سألتُ جودي عن الهدف من سيرنا في هذا الشارع إذن؟ طلبت أن أكف عن التذمر وأن أواصل المسير والاستمتاع بالهواء الجميل، قلت غاضبا إنني سأسير فقط حتى نصل إلى أقرب جسر لنصعد عليه ونشاهد نهر النيل من فوقه ثم نذهب لنتغدى في أقرب مطعم متاح. هزت رأسها وواصلت السير أمامي، بعد قليل وفي شارع غير مزدحم فاجأني مشهد لم أكن أتصور أنني سأراه يوما ما في أي شارع.. في أي مدينة من مدن العالم، شاهدت هنا كثيرا أكواما من القمامة تملأ الشوارع، لكن هذا كان أمرا محتملا مقارنة بهذا المشهد الذي تلعب بطولته مجموعة من الفضلات البشرية الجافة تتراص متقاربة إلى جوار سور يحيط مبنى ما، كأنها تشكل متحفا مفتوحا للمخلفات البشرية.

وقفت أنظر مذهولا إلى المشهد الكريه قبل أن أنادي جودي

التي ندّت منها صرخة فور رؤية المنظر الذي أشرت إليه، وقالت لي ساخطة إن عيني لا تلتقط سوى الأشياء القبيحة وإنها مرت إلى جواره دون أن تلحظ شيئا، تجاهلتها وأخرجت كاميرتي لكي أصور المنظر، وأنا أتصور الضحك الهستيري الذي يمكن أن يبعثه لدى أصدقائي عندما يرونه، اتسعت ضحكتي عندما بدا لي من خلال العدسة أن هناك مجهودا في تشكيل بعض الفضلات لكي تكون ملتفة بشكل مخروطي أحيانا، فجأة اسودت الدنيا بعد أن هوت يد ثقيلة على مؤخرة رأسي، وخطفت يد أخرى الكاميرا مني ورمتها لتسقط على الأرض مهشمة، وجدت نفسي محاطا بعدد يتزايد من الناس الذين بدا جليّا أنهم غاضبون بشدة. لا أزعم أنني فهمت كل ما قالوه، لكن ما تمكنت من تجميعه مما قيل بإنجليزيتهم، جعلني أفهم أنني وجودي متهمان بتشويه سمعة مصر والسعي لالتقاط صور تسيء إليها وتمنع السائحين من زيارتها، أكثر المتحدثين إجادة للإنجليزية اتهمنا بأننا دون شك أعضاء في تنظيم دولي يريد تدمير مصر وأنه سيتم تسليمنا إلى قوات الشرطة للتحقيق معنا لنعترف عمن يدفع لنا لتشويه سمعة مصر. كل هذا فهمته، لكن ما لا أفهمه لا وقتها ولا بعد ذلك ولا أظن أنني سأفهمه أبدا، هو لماذا قام كثير من الخائفين على وطنهم باعتصار ثديي جودي وإدخال أصابعهم في مؤخرتي؟

سبتمبر ٢٠١٤

كان لي رئيسٌ فيلسوف!

كان لي رئيس فيلسوف، بتوجيهات الشاطر شغوف، ولم يكن أحد من شعبه الذي دعكته الظروف، يعرف أن رئيسه فيلسوف، إلا عندما ذهب الرجل إلى باكستان، فانحنت له الأبدان، وخفقت القلوب بالحب والامتنان، وضاقت الشوارع من الهيجان، وقلّده فلاسفتها الصولجان، ووضعوا على رأسه التاج وألبسوه روب الديباج، وأشعروه بالفرحة والابتهاج، وشووا له النعاج، وكادوا يمشون له حافين على الزجاج، فعرف أبناء شعبه الملهوف، أن رئيسهم رجل فيلسوف، وعندها فهموا لماذا كان يتلجلج في الحروف، ويتخبط حسب الظروف، ويسلك كل طريق متلوف، ولم يروا منه في الإنجاز «تنتوف»، ولما رأوا كيف كرمه أهل الباكستان، وألبسوه الحرير والطيلسان، أدركوا أنهم كانوا له ظالمين، ولفضله ناكرين، حين ظنوا أنه سارح في دنيا الخيال، منفصل عن الواقع لا محال، بينما الرجل من الفلاسفة، ونفسه عن الدنيا عازفة، فغادرهم الإحباط، لأنهم محكومون بزميل لسقراط، ونزلوا إلى الشوارع يتشألطون؛ لأن رئيسهم من تلاميذ أفلاطون، ولم يعد أحد منهم في الشوارع يطرطَر، فرئيسهم فيلسوفٌ كسارتر.

ذهبت أنا مُقدِّمة البرنامج الإذاعي الشهير «كان لي صديق فيلسوف» إلى رئيسنا النحرير، لأحمل له أسئلة مستمعي البرنامج العام، من الصفوة والعوام، بعد عودته إلى البلاد وتشريفه للعباد، فقلت له: قل لنا يا سيدي، كيف أصبحت رئيسا وفيلسوفا بريفيكس، مع أن الرئاسة والفلسفة دونت ميكس؟ قال لي وقد أخذ نفسا عميقا وأخرج زفيرا وشهيقا: لأنني والحمد لله بنيت حياتي كلها على طلب الستر، ثم استدرك وقال: هل لا زلتم في هذا البرنامج تتحدثون بالسجع؟ قلت له: لا يا مولاي، منذ أن تم تخفيض الميزانية أصبحنا نفعل ذلك في مقدمة البرنامج فقط، قال لي: جميل لأن مستشاري الرئاسة منذ أن قلت خطبة أبلج ولجلج نصحوني بألا أتحدث بالسجع كثيرا؛ لأن ذلك يجلب سخرية الزعران سليطي اللسان.. أكملي أسئلتك يا ابنتي. قلت له: هل الستر إذن هو اسم مذهبك الفلسفي؟ فقال: لا أنا مذهبي حنبلي، لكنني تزوجت على مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان وعلى الصداق المسمى بيننا. قلت له: لا أحدثك عن المذاهب الفقهية يا سيدي، بل أحدثك عن المذاهب الفلسفية، أيها أنت إليه أقرب؟ فقال: أنا أقرب إلى التكييف الآن وهذا يتعب ظهري كثيرا، فهلا تسمحين لي بأن أنادي أحدا لكي يقوم برفع ريش التكييف إلى الأعلى؟ قلت له: افعلَ ما بدا لك يا سيدي ولكن حدثني عن فلسفة الستر كما تراها، فقال: لست من الذين يميلون إلى المذاهب الفلسفية المعقدة، بل أنا من المؤمنين بأن الفلسفة الحقيقية تأتي من على ألسنة البسطاء وعامة الناس؛ ولذلك اكتسبت فلسفتي في الستر، من عبارة قرأتها على ظهر توك توك عندما كنت أحاول عبور شارع منيا القمح الرئيسي قادما من الزقازيق ومتجها إلى جلسة في مجلس الشعب قبل

سنوات، والتوك توك - إن كنت لا تعلمين - خنثى مشكل بين وسائل النقل، ليس بالسيارة مع أنه يسير، وليس بالطيارة مع أنه يكاد يطير، وليس بالموتوسيكل مع أنه يخرج هبابا من مدخنته؛ ولذلك فقد أحسن من أطلق عليه في إدارة المرور لقب المركبة البخارية.

قلت له وقد تملكني الإعجاب من وافر علمه وتدفق حديثه: أعلم ما هو التوك توك يا سيدي وقد امتطيت واحدا من أسفل كوبري التونسي إلى موقف ميكروباص مدينة نصر لكي آتي إلى سيادتكم، لكني لا أريد أن يأخذنا الحديث فأنسى سؤالك عن تلك العبارة التي قرأتها على ظهر التوك توك والتي بنيت عليها فلسفتك، فقال لي وقد ارتسم على وجهه حبور بالغ: كانت العبارة تقول: «عُكّ وربُك يفُكّ». قلت له وقد بدت حيرتي: تخيلت يا سيدي بما أن فلسفتك هي الستر، أنك ستذكر عبارة مثل «الستار موجود» أو «استر ياللي بتستر» أو حتى «صدّرها للي يقدّرها» وغيرها مما يشتهر وضعه على أجساد التوكتوكات، لكنك اخترت عبارة أبعد عن هذا كله، فلماذا كان ذلك كذلك؟ أشرق وجهه بضحكة عريضة وقال: وكيف أكون فيلسوفا إذن إذا لجأت إلى عبارة مباشرة لا تحتوي على مغزى عميق، إن عبارة مثل «الستار موجود» يا ابنتي ليست عبارة فلسفية بل هي عبارة إيمانية لا تخص الفلاسفة بل علماء العقيدة، وعبارة «استر ياللي بتستر» هي دعاء يلزم الأمهات أكثر من الفلاسفة، أما عبارة «صدّرها للي يقدرها» فهي عبارة تهم علماء المنطق أكثر لأنها جملة تعرض لنا منطقا مهمّا، إذ إنك لا بد أن تصدرها لمن يقدرها؛ لأنك لو صدرتها لمن لا يقدرها فأنت تكدرها.

قلت وقد تملكني الدوار من قُدرته على الارتحال بين الأفكار

كأنه سندباد ذو فحيح يمتطي بساط الريح: سامحني يا سيدي، فإني أخشى أن أتوه في فيافي معرفتك الشاسعة وبساتين فكرك العامرة وأنسى سؤالك: كيف بنيت نظريتك في الستر على العك؟ فقال بأبوية حانية: لا ضير من الارتحال بين الأفكار فهذا شأن الفلاسفة، ألا تسمعين الناس يقولون لبعضهم: «بدل ما تتفلسف خش في الموضوع»؟ فكيف تريدين لي أن أدخل في الموضوع وأنا فيلسوف، حتى إن رأسي لا زال دافئا من أثر طاقية الفيلسوف التي منحها لي فلاسفة الباكستان، ولكن سأجيبك يا ابنتي رأفة بحالك: يا ابنتاه، اعلمي أن العَكّ طريق الستر، فأنت إذا لم تعُكّ، فلماذا سيسترها الله معك؟ هل سيسترها معك إذا قمت مثلا بالالتزام بوعودك الانتخابية التي قطعتها على نفسك، عندها كان سيمشي كل شيء بشكل سليم وتختفي الحاجة للستر وطلبه، لكنك إن عككت فنسفت كل وعودك الانتخابية وأصدرت إعلانا دستوريّا مليئا بالعك، وأنت واثق أن ربك سيفك ما عككته، فسيقيض الله لك من يقول للناس إن هناك مؤامرات مخفية استوجبت عكك، أو من يسمع لك ويطيع لأنك حافظ لكتاب الله، أو من يستعد لأن يزهق روحه وأرواح الآخرين من أجلك لأن ذلك سيكون طريقه إلى الجنة، وعندها ستدرك صدق إيمانك بحتمية الفَكّ إن حصل العَكّ.

قلت له: هذه مفاجأة تفغر لها الأفواه وتنقطع لها الأمواه، إذن فقد كان ما فعلته سيادتك منذ الإعلان الدستوري وما تلاه، أمرا مدروسا وراءه فلسفة ولم يكن مصادفة أو توريطة استدرجها لك بعض الحاقدين. اعتدل في جلسته قائلا: يا ابنتي لا تظني أنني أصدر قرارا لا تكتنفه الفلسفة، وهذا للأسف ما رآه فيَّ أهل باكستان لأنه

لا كرامة لفيلسوف في وطنه، وفيلسوف الحي لا يُطرِب، لكني على أي حال محظوظ لأنني وجدت التكريم اللائق وأنا على قيد الحياة، فغيري يمكن أن يموت ويشبع موتا دون أن يجد من يفهمه، ولعلها كانت رسالة من الله إلى بني وطني أن يقتدوا بإخوتهم في بلاد السند والهند، وهي بلاد عريقة في الحكمة، وقد جعل الله لها من اسمها نصيبا، ألا تعلمين أن «باك» تعني العودة، و«ستان» تعني بلاد، فهي «بلاد العودة»، أي أن من ذهب إليها لا يعود إلا بدكتوراه فخرية. قلت له بعد تردد: اغفر لي جهلي يا سيدي، ولكني أظن أن «باك» تعني في لغتهم - الأورديّة - البياض. فقال لي: وهل البياض حاجة وحشة يا ابنتي؟ إذا كان الأمر - كما تقولين - فهذا يزيد من أهمية تكريمهم لي، أليست أكبر مشاكلنا هي كمية السواد الرهيبة التي في قلوبنا؟ هل شاهدت وسمعت كم الهجوم الذي لقيه حصولي على الدكتوراه، لو كنا باكستانيين أفلم يكن لدينا بياض ينفعنا بدلا من هذا السواد الذي سيذهب بنا في ستين داهية؟

لم أرد أن ينحرف مسار اللقاء عن مغزاه الفلسفي فسألته: قل لي من يعجبك من الفلاسفة يا سيدي؟ قال: يعجبني الصدق في القول والإخلاص في العمل وكل فيلسوف يصحى من النجمة لكي يلحق بأبواب الرزق التي تفتح ساعة البكور، فما الفلسفة إلا رزق؛ ولذا يا بخت كل فيلسوف يصحو في البكور ويؤدي فرض ربه ثم يخرج إلى شرفة منزله حاسر الرأس، ليملأ رأسه بأجمل الأفكار وأعذبها، ولعل هذا سر ما يستغربه الناس من قدرتي على الخطابة لساعات وأفكاري تنهمر دون انقطاع. قلت: بارك الله فيك يا سيدي وتقبل منك صالح الأعمال، لكني كنت أسأل: من هم الفلاسفة

الذين يعجبك عملهم؟ قال لي: كل فيلسوف عمله على نفسه وربنا سيحاسبه على قد نيته، قلت له: أعلم أن بحور الفلاسفة غريقة وأنني لن أحظى منك بإجابة مباشرة، لكني أريد أن أنتزع منك إجابة تُفيد عشاق الفلاسفة.. لمن تقرأ الآن من الفلاسفة؟ قال لي: أقرأ صحيفة الحرية والعدالة وأواظب عليها بانتظام، ضحكت وقلت له: فهمتك يا سيدي أنت لا تريد أن توجه القارئ نحو اسم معين لكي لا يشغله عن غيره، لذلك سأسألك أنا كمحبة للفلسفة عن بعض من أحبهم من الفلاسفة لأستزيد من علمك، قاطعني قائلا: لا أحب أن أتكلم عن أحد في غيابه فذلك يدخل في بند الغيبة والنميمة، قلت له: لن أحدثك عن أشخاص الفلاسفة بل عن أفكارهم، هل تحب فكر سقراط؟ قال لي: ومن في هذا الكون لا يحب سقراط؟ هل شهدت الملاعب صخرة دفاعية صلبة مثله؟ نظرت إليه لأستجلي ملامح وجهه فقد شككت أنه غضب مني فقرر أن يرد على سؤالي بسخرية مريرة؛ لذا قلت مبتسمة: ألا يحزنك ألا يبقى من سقراط بين عموم الناس سوى ما قاله من كلام ساخر ينتقد فيه زوجته؟ قاطعني بملامح غاضبة وقال لي: قلت لك لا أحب أن أخوض في الأعراض، أنا لم أكن أتابع الرجل سوى في الملاعب وقد حزنت عليه عندما مات مؤخرا لكني يمكن أن أفهم معاناته مع زوجته مع أني لم أرَ شكلها ولو رأيته لغضضت بصري، لكني أعلم أن نساء البرازيل معروفات بالجمال الفائق الذي يمكن أن يجعل الرجل يلف حول نفسه ويخانق ذباب وجهه. واصلت التفرس في ملامحه وأنا لا أدري هل هو جاد أم هازل، وقررت أن أنتقل إلى سؤال آخر فقلت: هل ترى أن أفلاطون كان أمينا في محاوراته مع أستاذه سقراط، أم أنه قام بنسب آراء إليه لم

يقلها وكانت هي آراء أفلاطون نفسه؟ نظر إليَّ بجدية شديدة وقال: الحقيقة أنني توقفت عن متابعة الكرة بعد جيل الثمانينيات، ولم أعد أعرف سوى أسماء متناثرة مثل روماريو وبيبيتو ورونالدو، لكن رحم الله سقراط لن يعوضه أحد، هل تعلمين أننا كنا نقوم بتشبيه حسن شحاتة به من حيث الشكل مع أنه كان يلعب في مركز مختلف؟

أدركت حينها أن سيادته كان يعاقبني لأنني أصررت على أسئلتي التي بدا من الأول أنه غير راضٍ عنها، فقلت: ردودك تجعلني أستنبط أنك ربما بحكم توجهك الإسلامي تفضل أن نتحدث عن الفلاسفة المسلمين كما اخترت أن تفعل في خطاب تسلم الدكتوراه؛ لذلك دعني أسألك: من هو أكثر من تحبه من الفلاسفة المسلمين؟ أشرق وجهه فأدركت أني كنت محقة في ظني لكنه قال: أكثر من أحبه من الفلاسفة المسلمين أخي صبحي صالح، لديه قدرة مذهلة على الفلسفة تجعلني أغبطه وأتمنى لو امتلكت يوما لسانه، بارك الله لنا فيه. هنا أدركت أنني أخطأت عندما ركزت مجددا في الحديث عن الأشخاص، وهو أمر لا يحبه فيلسوف مثل سيادته حصل لتوه على الدكتوراه الفخرية ولعله يحب أكثر أن أسأله عن فلسفته هو، وليس عن فلسفة غيره، لكن المشكلة أنني كنت قد أنفقت وقتا طويلا في محاولتي البلهاء تلك، ولم يتبقَ وقت كثير من الذي تم تخصيصه لي لإجراء الحوار.

قلت: أعرف سيدي أني قد أثقلت عليك، وأخذت من وقتك الموزع بين بحور الفلسفة وشئون الحكم، لذلك لم أعد أطمع إلا في أسئلة قصيرة أتعرف بها بشكل مختصر على رؤيتكم الفلسفية للكون والحياة، قال: ولو أن الاختصار ليس من فلسفتي لكن ضيق

الوقت سيجبرني على ذلك، قلت: أما وقد عرفنا فلسفتك في الأمور السياسية، فما هي فلسفتك في الحياة الشخصية؟ قال: أنا أومن بمقولة جامعة مانعة لا أكف عن ترديدها هي مقولة: «خلي جلدك تخين»، قلت: هذه مقولة أقرب إلى فلسفة القوة لدى الفيلسوف نيتشه، قال بعد ارتباك قصير: نيتشه.. لعله نتشها مني.. هل هو أمريكي؟.. ربما كان زميلا لي في الجامعة واقتبسها بعد أن سمعها مني. لم أتبين إذا كان جادا أم هازلا، لكني شعرت أنني أخطأت عندما أعدت طرح اسم فيلسوف غربي من جديد فعدت لأسأله سريعا: وما هي فلسفتك الاقتصادية؟ فقال وضحكة عريضة تملأ وجهه: نفس فلسفتي في السياسة والحمد لله «عُك وربك يفك». انتقلت إلى سؤال تالٍ وأنا أحمد الله على سرعته في إجابة السؤال السابق: يا سيدي كل فيلسوف له مفهوم للزمان، فهل يمكن أن نستنبط مفهومك الفلسفي للزمان من عبارتك الشهيرة التي حيرت الفلاسفة والتي تقول فيها عقب أحداث بور سعيد الدامية: «إذا اضطررت فسأفعل، وها أنا أفعل» بحيث إنك جمعت زمنين متعارضين في لحظة من الزمن؟ نظر إليَّ بحيرة وقال لي: «فين السؤال؟»، شعرت بالحرج وقلت له: «عندك حق يا افندم، آسفة.. سؤالي: إيه مفهوم سيادتك للزمان؟»، رد قائلا: «وليه نتكلم عن زمان؟ ما تخلينا في دلوقتي وتحدياته». جعلتني ملامح الجدية المرتسمة على وجهه أمتنع عن مناقشته أو الظن أنه يهزل، فقررت أن أنتقل إلى السؤال التالي: وهل لدى سيادتك فلسفة صحية؟ رد بحماس: فلسفتي تتلخص في كلمة واحدة «القيلولة»، كما أنني أنتهز الفرصة لأؤكد على ما سبق أن أشار إليه أخونا رئيس الوزراء من ضرورة الاهتمام بالنظافة الشخصية للصدر عند السيدات. تأكدت

الآن أنه يسخر مني لينبهني إلى أن وقتي معه قد طال فقلت: سؤالي الأخير يا سيدي، تعلمون أن أبسط تعريفات الفلسفة هي أنها لفظة يونانية مركبة من كلمتين: «فيلو» أي محبة و«صوفيا» أي الحكمة، أي أن الفلسفة تعني محبة الحكمة، قاطعني وقد قطّب وجهه قائلا: ولماذا نتقيد بالتعريف الغربي، أنا شخصيًا أفضل اسم صفية على اسم صوفيا، هناك أيضا اسم صفاء بكل ما فيه من قيم ودلالات، ثم لماذا نحب صوفيا أو صفاء بالذات، لماذا لا يحب كلنا بعضنا، نحن ينقصنا الكثير من الحب، لو كان اليونانيون قد أحبوا بعضهم بدلا من حب صوفيا لما كانت اليونان قد تعرضت للإفلاس، دعيني هنا أكرر إن الذين يتحدثون عن الإفلاس هم المفلسون، هم المفلسون، هم المفلسون، وصدقيني والله لو أحببنا بعضا لغار منا اليونانيون ولما كانت هذه آخر دكتوراه فخرية يمنحها لنا الباكستانيون. هنا وجدت نفسي أقاطعه قائلة لكي ألحق بآخر فرصة للسؤال قبل نفاد الوقت: طيب إذن، ما هو تعريفكم للفلسفة؟ قال بعد لحظات مهيبة من الصمت: الفلسفة هي المبدأ الذي تسير عليه في حياتك من غير ما تتفلسف، فنحن يا بنتي لم يضيعنا إلا الفلسفة، قومي إلى حياتك يرحمك الله.

خرجت من مقابلة سيادته وأنا أقول لنفسي: إما أن هذا الرجل لا علاقة له بالفلسفة من قريب أو من بعيد، أو أنه أكثر عمقا وتركيبا من كل المذاهب الفلسفية التي توصل إليها العالم حتى الآن، وربما لذلك رأى فيه الباكستانيون شيئا لم نره فيه، وربما لن نراه فيه أبدا.

٢٠١٣

خطاب لم يُلقه أوباما!

فجأة تسرب مشروع الخطاب الذي يفترض أن يلقيه الرئيس الأمريكي باراك أوباما خلال زيارته القادمة لمصر. نقول فجأة مع أن الذين يعرفون الأمريكان جيدا لا يؤمنون بوجود شيء يحدث لديهم فجأة، ويرون أن التسريب كان مقصودا للرد على حملة التهليل التي قام بها الإعلام الرسمي المصري عقب إعلان البيت الأبيض أن أوباما سيوجه خطابه إلى العالم الإسلامي من مصر، وتصوير ذلك على أنه انتصار شخصي للرئيس مبارك؛ لذلك تم التسريب لوضع الأمور في نصابها، وهو ما تؤكده عدة فقرات من خطاب أوباما المنتظر الذي أنفرد بنشر فقرات منه لأول مرة معتذرا عن مستوى الترجمة.

«السيدات والسادة. نعم، كان من الطبيعي أن أتوجه بخطابي إلى العالم الإسلامي من مصر؛ لأن أي شخص حتى لو كان على دراية بسيطة بتاريخ العالم الإسلامي وواقعه ومستقبله يعلم أن مصر هي بوابة التغيير في الشرق، وعندما تتقدم مصر وتقوى سيصبح العالم الإسلامي في أحسن حال وسيكون قوة فاعلة نحتاجها لتغيير الكون الذي صار مهددا بالفناء. أعلم أن كلامي قد يكون خارجا على قواعد اللياقة السياسية، لكنني لا بد أن أعبر بعد دراستي لأحوال مصر عن

حزني الشديد لأن يكون البلد الذي علم الدنيا كلها قابعا الآن في ظلمات الجهل والتشدد، أنا حزين لأن مصر التي تعلم العالم منها الطب والتمريض تعيش معاناة صحية غير مسبوقة، أنا حزين لأن مصر بلد النيل يعاني بعض سكانها من العطش وأغلب سكانها من المياه الملوثة، أنا حزين لأن مصر التي كانت أسبق دول المنطقة إلى النهضة لا زالت محرومة من حقها في ديمقراطية حقيقية سليمة غير صورية يحكم فيها رئيس منتخب لمدة أقصاها فترتان رئاسيتان، أشعر بالخجل لأنني أزور بلدا به هذا القدر المبهر من الكفاءات التي تستفيد منها دول العالم وعلى رأسها الولايات المتحدة، ومع ذلك يحكمه رجل واحد منذ أكثر من ٢٨ عاما، وهو أمر لم يعد مقبولا في العالم كله أيّا كانت فضائل هذا الرجل. لقد أحزنني أن يتم تسويق هذا الوضع المؤسف بالرغبة في الاستقرار والخوف من المجهول، وهو ما كان يسوقه أعداء التغيير لدينا، الذين صوروا للمواطن الأمريكي أن تغييره لقيادته يمكن أن يوصل الإرهابيين إلى السيطرة على أمريكا، وللأسف صدقهم المواطن البسيط ودفعت بلادي ثمن ذلك غاليا، ثم قرر المواطن أن يلبي نداء التغيير ويستجيب لشعاري الانتخابي «Yes we can» والذي نبهتني مستشارتي للشئون الإسلامية أنه يطابق نص آية قرآنية مقدسة تقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾، وهي آية يبدو أن مواطني العالم الإسلامي قرروا نسيانها إلى الأبد.

السيدات والسادة: لقد جئت اليوم لأخاطب مواطني العالم الإسلامي من هذا البلد العظيم إلى ضرورة أن يدركوا أن التغيير لن يهبط عليهم من السماء، وأنهم هم الذين سيصنعون قدرهم بأيديهم،

لقد سُئلت مرة من قبل صحفي كيني عما إذا كنت سأساعد البلد الذي تنتمي إليه جذوري، وقلت له بصدق: نعم نريد أن نساعد كينيا، ولكن على كينيا أن تساعد نفسها بأن تتخلص من الرشوة والفساد.. واليوم أقولها لكم في هذا البلد وفي كل بلد إسلامي: نريد أن نساعدكم ولكن عليكم أن تساعدوا أنفسكم أولا، عليكم أن تكونوا مستعدين لدفع ثمن التغيير وتدركوا أنه أسهل بكثير من ثمن الركود والجمود والتوريث والفساد...».

فجأة انقطع بث الخطاب الوهمي في مخيلتي، وصحوت على قلم ثقيل يهوي فوق خدي، لحسن الحظ لم يكن قلما بوليسيًا لإفاقتي أثناء التحقيق، بل منحتني إياه ابنتي الصغرى بعد أن لاحظت طول شرودي وأنا أفتح فمي بضحكة بلهاء فقررت أن تستجوبني بطريقتها: «بابا إضحك كده ليه؟»، طمأنتها أنني لم أجن بعد، وعدت لأسرح فيما كان سيحدث لو قرر أوباما أن يكون خطابه فعلا كما تخيلت. كيف كان نظام الرئيس مبارك سيستقبل زيارته وخطابه؟ وهل كنا سنفضل أن نصبح من دول محور الشر على أن نتفاعل مع خطاب كهذا؟ ولماذا نحن أساسا محتاجون إلى أن يأتينا خطاب التغيير من الخارج، وإلى متى سيظل مكتوبا علينا الغلب الذي نعيشه لأننا لا نريد أن نتغير؛ ولأننا نفضل أن نعتنق شعار «No, we can't»؟ صحوت من خواطري هذه المرة على كف ابنتي الرقيق وهي تطبطب بحنان على مكان الصفعة، وتسألني مخضوضة: «بابا إنت إعيّط كده ليه؟».

مايو ٢٠٠٩

العسكري الراقص!

إذن لم ينفد بعد ما لدينا من مخزون الانحطاط؛ لذلك ابقوا معنا لتجدوا ما يدهشكم بقدرتنا الدائمة على ارتجال الانحطاط. هل ظننتم أن الجمال والبغال والحمير والعصي الكهربائية والخشبية كانت آخرنا؟ لا ياسادة، الآن إليكم العسكري الراقص.

أي واقعية سحرية يدعيها أدباء أمريكا اللاتينية؟ وإذا كانت الواقعية السحرية تعني أن تطير سيدة بصحبة ملاياتها إلى السماء أو أن تجري الدماء كالأنهار في شوارع قرية، فبماذا نسمي ما حدث قبل أيام في قلب القاهرة: عسكري أمن مركزي يقف في خِضَمّ مظاهرة حامية الوطيس حيث يتبادل زملاؤه قذف الطوب مع المتظاهرين إلى حين يأتي إمداد قنابل الغاز من المخزن، هو دونا عنهم يمسك بسيف حديدي لا يعلم أحد من صرفه له ومن أقنعه أنه يصلح لفض مظاهرة، ولا ما هي اللحظةِ النفسية التي جعلته يلوح بسيفه في الهواء كأنه يحارب جيشا متخيلا من الإسكتلنديين الراغبين في الانفصال، قبل أن يتطور الأمر فيضع السيف فجأة في موضع محاشمه؛ ربما لكي يثبت أن الطعام المطهو بزيت الكافور لم يؤثر عليها، مشيرا بسيفه إلى المتظاهرين إشارات بذيئة تكشف عن خبرة عتيقة في الجماع

استمدها بالتأكيد من عشرات الأفلام الفاضحة التي شاهدها على القهوة المجاورة لمحطة بلدهم قبل أن تندهه نداهة القاهرة وتلقي به في معسكر أمن مركزي لا يعلم إلا الله ماذا قيل له فيه عن المتظاهرين الذين لا ينبغي فقط أن نضربهم بالعصي بل علينا أن نضاجعهم بسيوف حديدية حفاظا على استقرار الوطن؟

منذ أن شاهد أصدقائي كليب العسكري الراقص والأسئلة تنهمر دون إجابات؛ بعضهم أخذوا يسألون عن طبيعة الأفكار التي تلقاها ذلك العسكري من الضابط الذي يرأسه، خصوصا أننا لم نشاهد ضابطا يقتحم الصفوف لكي يلطشه قلمين ويسأله: «بتهبب إيه يا حمار؟»، هل كان رئيسه ضابطا من نوعية الضباط الذين يكتبون على حساباتهم في الفيس بوك أنهم سيفتقون الثوار، ويعدون صديقاتهم المحبطات بأنهم سيطلقون الرصاص على المتظاهرين في المرة القادمة «عشان يتربوا»، أم أنه كان ضابطا مثقفا جلس مع عساكره في الثكنة وشرح لهم خطة «فريضم هاوص» لنشر الانحلال في مصر المحروسة بعد أن تم خلع مبارك حارس العفة، فقرر العسكري أن يقول للمتظاهرين إنه فقس خططهم الدنيئة وإنه سيفعل بهم ما يزمعون فعله من فحشاء بالحرائر ذوات الخدور؟

صديق مخرج اتصلت بي زوجته تطلب مني أن ألحقها لأن زوجها سيموت من فرط تأثره بنوبة من الضحك بدأت حين شاهد الكليب ثم قرأ أن وزير الداخلية أصدر قرارا بالتحقيق في الواقعة، فتخيل على الفور العسكري وهو يقوم بإعادة تمثيل الجريمة أمام جهات التحقيق، ومن ساعتها وهو يضحك دون توقف حتى خشيت زوجته على توقف قلبه.

على العكس تماما، ثمة صديق شديد التهذيب استاء بشدة مما رآه وقال بحزن حقيقي: «إيه الكلام الفارغ ده؟ إزاي الداخلية تسمح بحركات زي دي؟ إحنا متعودين نشوف الحاجات دي متذاعة في ماتشات الكورة بس». صديق آخر مهتم بالتكنولوجيا وتصنيف الأفلام في نفس الوقت انشغل بالسؤال عن أي كلمات مفتاحية سيستخدمها مسئولو موقع اليوتيوب لتصنيف ذلك الكليب، ووصل بعد تفكير إلى أنهم سيستخدمون كلمات «قمع ـ أمن ـ مصر بعد الثورة ـ هلوسة ـ سيف ذكري». أما صديقي الذي يعاني من تسرب متكرر للغاز في شقته، فقد أقسم أن ما قام به العسكري الراقص ناتج لا محالة عن تسلله كل ليلة إلى مخزن قنابل الغاز في ثكنة الأمن المركزي وقيامه بفتح قنبلتين وشمهما فقط؛ لكي ينسى امتهان كرامته وآدميته.

صديقي حمدي عبد الرحيم ذكرني بيوم الخامس والعشرين من يناير عندما كنا نتظاهر أمام دار الحكمة ونحن لا نعلم أننا نشهد وقتها ميلاد ثورة شعبية عظيمة، كان عساكر الأمن المركزي المرهقين يصطفون أمامنا غير فاهمين لماذا يهتف البعض دون حماس: «يحيا الشرطة ويا الشعب»، ولماذا تفجر الحماس فجأة مع هتاف: «يسقط يسقط حسني مبارك»، خلف الجنود تقف نضارات شمسية سوداء طلع لها ضباط، وفي ذات الوقت الذي كانت تسمع فيه بوضوح أصوات تكريعات الضباط الناجمة عن وجبة غذاء جامدة، قال عسكري أمن مركزي لنا: «يا عم ارحمونا وروحوا.. إحنا واقفين من الصبح وما فطرناش»، بعد قليل سقط عسكري آخر مغشيًا عليه بعد أن أصيب بهبوط حاد. هب المتظاهرون لنجدته في حين نبح كلب

من كلاب مبارك بعدها على موقع صحيفته قائلا: إن المتظاهرين غلاظ الأكباد ضربوا عسكري أمن مركزي على رأسه فسقط شهيدا، لم نعرف حتى الآن إذا كان العسكري قد أفطر أم لا، لكن ما نعرفه أن نفس العساكر والضباط الذين كان بعضنا يهتفون لهم بأن يحيوا وَيّا الشعب، عزفوا وصلات ضرب وحشية على أجساد المتظاهرين الذين كانوا يحاولون العبور إلى التحرير، يومها عندما شاهدت آثار الضرب الوحشية على وجه صديقي المخرج عمرو سلامة الذي نجا من الموت بفضل العساكر الذين تعاطفوا معه بعد أن هروه ضربا وقاموا بتهريبه في غفلة عن عين الضابط الذي طلب منهم أن يخلصوا عليه، قلت لحمدي: «واضح إن عمرو وقع مع العساكر اللي فطرت النهارده».

يا الله، كيف وصلنا في ربع قرن فحسب من (أحمد سبع الليل رضوان الفولي) إلى العسكري المضاجع؟ ومن المستفيد من تهشيم تلك الصورة الذهنية الساحرة التي صنعها لنا وحيد حامد وعاطف الطيب وأحمد زكي والتي جعلتنا سنين طويلة لا نرى في وجوه عساكر الأمن المركزي المصطفين لإرهابنا وضربنا سوى مشاريع لمتمردين أبرياء، فور أن يعرفوا الحقيقة سيفتحون النار على أعداء الوطن الحقيقيين؟ ويا ترى لو كان أحمد سبع الليل مشاركا في قمع المتظاهرين هذه الأيام، فهل كان سيخرج الناي من جيبه ويضعه في موضع عفته ليفعل ما فعله العسكري الراقص؟ ثم بالذمة ألن تتحول المظاهرات القادمة إلى مسخرة فائقة الأبعاد بمجرد أن ننظر في وجوه ضباط وعساكر الأمن المركزي، ونسأل أنفسنا من منهم سيخرج الآن سيفه لكي يبدأ في الرقص البذيء؟

وحتى تجد مصر حلّا في عساكر الأمن المركزي أو حلّا لهم، لا يبقى إلا أن نهتف له، حتى نراه في الواقع وليس في السينما وحدها: «عاش المجند أحمد سبع الليل رضوان الفولي».

٢٠١١

عن أهمية الكلوت كحد أدنى للاستثمار!

(٣ مشاهد من فيلم مصري طويل - خارجي - ليل بهيم)

(١)

دخلنا إلى ميدان التحرير فجاءني صوت سائق التاكسي «شايف يا أستاذ الحلاوة والنضافة والشياكة»، وجدته ينظر لي في المراية مبتسما فهززت رأسي دون اكتراث، ليضيف قائلا: «معلهش أصل الفوضى وحشة يا أستاذ»، ومع أنني كنت قد عزمت منذ فتح فمه فور كوبي على الطناش لكني إكراما للمكان رددت من طرف لساني: «طبعا مش عايزة كلام.. الفوضى أوسخ حاجة وآخرتها وحشة على الكل.. على اللي عملوها وعلى اللي استغلوها كمان»، لم يكترث بما قلته وواصل كلامه: «ولّا شوارع وسط البلد لو تشوفها دلوقتي.. يا سلاااام.. عاملة زي باريس في عز مجدها»، كنت على وشك أن أقول له: «حمد لله على سلامتك.. جيت إمتى من باريس؟»، لكنني قررت الطناش حتى يأتي الفرج بفراقه.

واصل قائلا: «هو بس في حاجة واحدة مش عاجباني في اللي

حصل.. إزاي ينقلوا البياعين حتة تانية يروحوا يبلطجوا فيها ويبيعوا مخدرات ويقرفوا الناس؟ كان لازم يحرقوهم كلهم ويخلصوا البلد من وساختهم»، فشلت في التزام الطناش، وسألته عما سيشعر به لو وجد أحدا يطلب الحرق لأمثاله من سائقي التاكسي الأبيض عندما قاموا بمظاهراتهم قبل أشهر، رد بتلقائية دون أن يرى مشكلة تخصه فيما قلته: «بس إحنا مظاهراتنا جابت نتيجة والجيش كتر خيره هيدفع لنا الديون.. مش هيسيبونا كده يعني، أكيد هيشوفوا لنا حل عشان لو إحنا عطلنا، البلد كلها تعطل».

سألته عما سيفعله إذا افترضنا أنه ـ يعني لا سمح الله والعياذ بالله وبعد الشر ـ لم يتم دفع الديون وتم طلب تحصيلها بالقوة أو الاستيلاء على التاكسي لسدادها، فقال كأنه يردد بديهية: «هاولع لهم في التاكسي.. أمال هاأكِّل عيالي منين؟!»، وعندما قلت له: «وتهون عليك مصر؟ ده أي حد بيحب مصر لو شافك بتعمل كده هيرميك جوه التاكسي وهو بيولع عشان ما تشوهش سمعتها»، نظر إليَّ بعدائية وساد صمت لم تقطعه سوى جملة «على يمينك يا أسطى».

(٢)

يومها شبطت فيَّ ابنتي الصغرى عندما قلت إنني ذاهب لدفع فاتورة الموبايل في فرع قريب لمنزلنا بشارع القصر العيني، حاولت تسخيف فكرة نزولها معي لأنني أعرف أن علاقتها بالشوارع المحيطة بنا مقتصرة على الفرجة عليها من الشبابيك الثابتة والمتحركة، لكن جملة «عايزة أمشي معاك في الشارع شوية» هزمتني فاستسلمت لها.

بعد أن أخذت ابنتي زخرُفَها وازيّنت، انطلقت رحلتنا القصيرة التي كان لا بد أن نبدأها بالسير في شارع مجاور لضريح الزعيم سعد زغلول المحاط بأكوام الزبالة من كل جانب باستثناء جانبه المواجه لوزارة الإنتاج الحربي! ومع أول ثلاثة أكوام زبالة ـ صغيرة للأمانة ـ حدث ما كنت أخشاه، حيث بدأت ماكينة الأسئلة الطفولية التي لم تعد المرارة المرهقة تتحملها: «بابا ليه الناس بترمي الزبالة كده في الشارع؟»، بعد صمت مطبق من جانبي داهمني السؤال الثاني: «هم مش عارفين إن ده بيجيب أمراض؟»، ولكي لا يبدو صمتي سلبية لا تليق بأب يفترض أنه يملك «زتونة» الحكمة، هززت رأسي باستنكار وقد رسمت علامات الاشمئناط على وجهي، لكن ذلك لم يمنع مجيء السؤال الثالث: «طب مش المفروض السيسي يشيل الزبالة دي؟»، كررت هز رأسي في الاتجاه العكسي هذه المرة، لكن ذلك لم يكن مقنعا لها، فسألتني: «بابا إنت مش بترد عليَّ ليه؟»، وعندها كان لا بد أن أجيب بهراء مقنع لا يجر المزيد من الأسئلة دون أن أقول كلاما غاضبا يلعن كل شيء، فتردده في حديث مع أحد ما من صديقاتها فينتهي الأمر بتسليمها لشرطة الأطفال العسكرية.

تقمصت شخصية مواطن شريف يخاف من مصير سوريا والعراق وقلت كلاما عن ظروف البلد الصعبة وعن لم الزبالة الذي يحتاج إلى فلوس كثيرة ستأتي في القريب العاجل وحتى يحين ذلك فها هي الزبالة تحل لنا مشكلة تأكيل الكلاب والقطط، ولم أقل وبعض الناس حفاظا على مشاعرها البريئة، وعندما نظرت إليها لأرى وقع كلامي

عليها، وجدتها تسد مناخيرها بيديها، فلم أعرف هل كان ذلك بسبب رائحة كلامي، أم بسبب الهبو المنبعث من كوم زبالة عملاق كنا نسير إلى جواره.

عندما مررنا إلى جوار مبنى وزير التربية والتعليم نظرَت ابنتي إلى المبنى الضخم المظلم ليلا، وقالت: «إيه المكان ده يابابا؟ ده عامل زي القصر المسحور»، ضحكت وقلت: «ما هو زمان كان قصر فعلا، بس دلوقتي بقى مبنى وزارة التربية والتعليم.. الوزارة بتاعتكو يعني»، وقفت للحظة تتأمل المبنى قبل أن تقول لي بجدية: «ده شكله مسكون»، وأنا لم أكن في مود الهزار، فقلت لها متقمصا دور عبد الحفيظ التطاوي: «طبعا مسكون بشبح التخلف»، قالت مبتسمة: «لا يا بابا، ده مسكون بشبح وزير اتقتل من أربع سنين ولو ركزت شوية هتلاقيه واقف على السور دلوقتي»، ضحكتُ فسألتني فخورة: «حلوة مش كده»، كنت على وشك أن أحتضنها بقوة لولا أنها أشارت إلى كلب مريب الطلعة يقترب نحونا وقالت: «مد شوية يا بابا، الكلب ده شكله مسعور».

على ناصية الشارع التالي وإلى جوار كوم زبالة جديد، سألتني بمناسبة أني كنت على وشك السفر إلى نيويورك: «بابا هي نيويورك فيها زبالة كده؟»، قلت بحماس أب يهدف إلى ألا تشعر ابنته بعقدة نقص أمام العالم: «طبعا فيها زبالة كتير زي أي مدينة كبيرة»، وعندها تذكرت مناقشة بيني وبين كاتبة أمريكية صديقة قالت إنها لا تفهم سر إعجاب أمثالي بنيويورك التي تتحول كل مساء إلى مدينة مزينة

بأكياس القمامة في كل ناصية، حاولت أن أشرح لها عبثا أنني لا أطلب أبدا المستحيل وهو أن أعيش في مدينة ليس بها زبالة مطلقا، مع أني رأيت ذلك في مدينة مثل إدنبرة الإسكتلندية التي بدا لي بعد فترة من الإقامة فيها أن أهلها يقومون برش مادة كيميائية تقوم بإخفاء الزبالة لكي لا يراها أحد من زائري المدينة، قائلا: إن فكرة وجود أكياس زبالة توضع على النواصي عدة ساعات حتى تمر عربيات الزبالة لجمعها في وقت معلوم تشبه تصوري عن المدينة الفاضلة. أخذت أحاول تبسيط فكرة حتمية الزبالة في المدن الكبيرة لابنتي، فقاطعتني قائلة: «طب ما هو طبيعي يبقى في زبالة، بس برضه لازم إنها تتشال»، هززت رأسي موافقا وأنا أدعو الله أن يخلص هذا المشوار سريعا، خاصة أن تعليقها التالي كان بعد رؤيتها لجنينة دار العلوم: «بابا الجنينة دي شكلها يخوف أوي».

عندما دخلنا إلى مقر البنك المجاور للجنينة وجدناه مُكيّفا أكثر من اللزوم، قلت غاضبا: «مش فاهم ليه بيعلوا التكييف كده، هيخلوا الناس تعيا»، وهي كانت على ما يبدو قد لقطت حس البحث عن الإيجابيات من حديثي السابق، فقالت بثقة: «احمد ربنا إن ما فيش هنا زبالة»، وأنا حمدت الله عليها وقبلتها مع حضن جامد جدّا، وبعد أن انتهينا من قضاء مشوارنا ساورني قلق من أن تكون نبرة التبرير قد زادت أكثر من اللازم، فأكون قد أقنعتها بحتمية وجود الزبالة في الشوارع، مع أن ذلك ربما كان مفيدا؛ لأن الزبالة لن تغادر شوارعنا سريعا، لكن قلقي زال عندما وجدتها بعد أن أنهينا مشوارنا تقول لي راجية: «بابا ممكن نروّح من طريق فيه زبالة أقل».

(٣)

أخذ رجل الأعمال العائد من الخليج بعد طول غياب يحكي لي كيف أخذت أحلامه العريضة في الاستثمار في أرض الوطن تتضاءل شيئا فشيئا حتى تلاشت تماما.

كانت هذه ثالث مرة يقرر فيها العودة إلى مصر خلال أربعة أعوام، عاد أولا بعد الثورة لينهي غياب خمس سنوات عن مصر التي «هجّجه» منها فساد حكم مبارك، بعد أشهر وجد أن الحال لم يتغير، فسافر وعاد بعد نجاح مرسي ليكتشف بعد شهرين من عودته أن هناك من ينصحه بأنه إذا رغب في تسليك مصالحه سريعا بأن عليه أن يشارك فلانا وعلانا من رجال أعمال الإخوان. سافر من جديد وعاد بعد رحيل مرسي فرحا بالخلاص من الحكم الإخواني ومصدقا أن مصر أخيرا تغيرت، وعندما سألته أن يوجز لي التغير الذي حدث في مصر منذ عاد، فقال لي بهدوء: إن أهم شيء تغير هو عرض الخازوق الذي كان يجلس عليه من قبل، أصبح أعرض وأعمق.

كان الهدف من جلستنا أن أتعاون معه في مشروع فني يفكر في إنتاجه، لكنني بعد حوالي ساعتين من حكاياته المفزعة عن كواليس الفساد في عالم البيزنس أصبحت أراه هو نفسه المشروع الفني الذي لا بد من كتابته، وبرغم أنه حلّفني منذ البداية أن كل ما يقوله ليس للنشر، فإن غواية كتابة ما يحكيه أصبحت أقوى من غواية تنفيذ مشروعي الفني معه، فوجدت نفسي أقول له: «إنت عارف إن المشروع الأحلى والأهم هو إني أكتب مذكراتك كبيزنس مان في

ظل عهود مبارك وطنطاوي ومرسي والسيسي.. اللي إنت بتحكيه ده أخطر حاجة تقريبا سمعتها عن أحوال مصر؛ لإنك ببساطة بتحكي سيرة حياة الفساد اليومي اللي معشش في زواريق البلد».

انتفض كمن لدغته عقربة، وجرى على مصحف موضوع في دولاب قريب وأحضره ليحلفني على عدم نشر ما قاله؛ لأنه حكاه فقط للفضفضة مع صديق كي لا يطقّ من جنابه، وكشأن أي مصري صميم أدرك أن الحلفان على المصحف ليس كافيا للالتزام بالعهد، فأصر على أن يُحلِّفني بحياة بناتي وصحتهم وعافيتهم لكي يضمن ألا أفتح فمي بما حكاه عن أسماء وأشخاص، ولكي أضعك في صورة ما حكاه دون أسماء أو تفاصيل كاشفة لكي لا أحنث بقسمي، يكفي أن أقول لك إن الرجل أثناء سعيه لشراء قطعة أرض ضخمة في منطقة قريبة من القاهرة كان سيقيم مشروعا كبيرا عليها، طُلب منه ترخيص ما من جهة ما، وعندما ذهب إلى المسئول عن إصدار الترخيص، لم يطلب منه رشوة ضخمة ليعطيه تصريحا بأنه لا مانع من بيع هذه الأرض؛ لأن الرشوة المالية أصبحت موضة قديمة، بل طلب منه أن يدخل شريكا في المشروع بنسبة عشرة في المائة من خلال أحد أقاربه، ليبدأ صاحبنا في التفاوض مع الرجل المهم تفاوضا فريدا من نوعه: هو يعرض على الرجل مبلغ رشوة مالية «توتو على كبوتو»، والرجل المهم يخبره أن «الفلوس مش مضمونة وبتتصرف بسرعة»، ليقطع الاثنان تفاوضهما ليصليا المغرب عندما جاء وقته؛ لأن «المغرب بيتسرق» كما تعلم، قبل أن يعودا ثانية للتفاوض بعد الصلاة، والتفاوض انتهى بأن صرف صاحبنا النظر عن المشروع أصلا؛ لأنه لا زال من أنصار الدقة القديمة في الفساد، ولا زال أمامه

كثير من الوقت لكي يقتنع بفكرة الفساد المشارك الماكث الذي لا يأخذ حقه ناشفا ويجري.

عندما ظل يلُكّ في طلب المزيد من التأكيد على أني لن أكتب ما حكاه لي، قررت من باب العناد أن أقول له كلاما يؤنب ضميره عن أهمية أن يقول شهادته للناس؛ ليكونوا على بينة مما يجري لهم، وليكون هناك أمل في تغير البلاد، وهو ذهب إلى الدولاب وأعاد المصحف إلى مكانه، وقال بعدها: «دلوقتي أقدر أشخر وضميري مستريح»، وبعد شخرة قصيرة أخذ يحدثني طويلا عن عدم جدوى قول أي شيء عن أي شيء، وأن الحديث في السياسة يمكن أن يتم التعامل معه بتسامح، لكن الحديث عن فساد البيزنس دونه قطع الرقاب، ولم يقطع انفعاله في الكلام سوى انقطاع النور المفاجئ الذي ذكرني أننا نجلس في الدور «الحاجة وعشرين» في برج أسمنتي عملاق ينقبض قلبي كلما مررت به، وفجأة لم يعد يشغلني لا مشروعه ولا مشروعي، بل أصبح كل ما يشغلني كيف سأنزل كل هذه الأدوار على رجلي حتى لو عادت الكهرباء، لكي لا أغامر بانقطاعها ثانية وأنا في الأسانسير.

في أقل من لحظات عاد النور، وعندما اندهشت قال مفسرا: إن هناك شركة أجنبية متعاقدة على بناء مشروع سياحي داخل القاهرة، قررت ـ منعا لمهندسيها الأجانب من البهدلة المصاحبة لانقطاع الكهرباء المتكرر ـ شراء مولدات للعمارة كلها على نفقتها، قبل أن يضيف قائلا في لهجة تليق بمسكين يسأل الله حق النشوق: «ده أنا بادعي لهم كل يوم والله.. تصور أنا ساعات باجيب المدام والأولاد من الفيلا في المريوطية عشان يقعدوا في التكييف بدل ما هم قاعدين

مخنوقين في الحر، والكهرباء بتتقطع هناك بالساعات»، سألته مستغربا: «طب ما تشتري مُولِّد للفيلا أحسن وتخلص»، وهو رد سريعا دون أن يأخذ وقتا للتفكير: «مش لو كنت هاقعد فيها أصلا»، وبعد أن أدرك أن رده يجعل من قعدتنا كلها عبثا لا طائل من ورائه؛ لأنه لا مبرر أن نتحدث في أي مشروع من أي نوع وهو يستعد لترك الجمل بما حمل، عاد ليحدثني بمرارة شديدة عن حبه لمصر وكيف حاول كثيرا أن يبقى ليستثمر فيها وإلا ما كان قد عاد مع كل عهد مستبشرا مشرئبا، قبل أن يختم كلامه بعبارة ملحمية حين قال: «تصدق بالله أنا مرة في قعدة بقيت عايز أقولهم: طيب أنا موافق تقلعوني هدومي، لكن سيبوا لي الكلوت على الأقل».

حينها شعرت أن وقتي معه لم يضع هباء منثورا، فعلى الأقل أصبحت أعرف أنني ذات يوم سأكتب تفاصيل ما سمعته منه في كتاب سيكون وثيقة فريدة من نوعها تحكي كيف ظلت مصر تتردى من نقرة لدحديرة، وهو كتاب لن أجد له عنوانا أفضل من «سيبوا الكلوت على الأقل».

٢٠١٤

التخلل الانتكاسي!

«لا حول ولا قوة إلا بالله. لماذا ندخل عصر الحروب ثانية يا ناس، ونحن ما صدقنا أن ابتدينا بالسلام فردت الدنيا علينا بالسلام يا سلام يا سلام؟».

هكذا قلت لنفسي بعد أن قرأت التصريح الناري الذي أدلى به الرئيس مبارك لرؤساء تحرير الصحف القومية الذين سألوه عن سر تزايد الهجوم الأمريكي على مصر فقال لهم: «لأننا لا نسمع الكلام»، كنت قبلها قد استمعت إلى وزير الاستثمار محمود محيي الدين، أحد محاسيب جمال مبارك، وهو ينتع تصريحا عنتريًا بأن «أمريكا ليست وصية علينا». فداهمني شعور بأننا أصبحنا على وشك دخول حرب ضد أمريكا الفاجرة الغاشمة التي قررت أن تحول بين الرئيس وشعبه، وتمنع أمن سيادته من إعانة المواطن المصري على أن يلتصق أكثر بتراب بلاده بعد سحله في الشوارع.

قضيت ساعات طويلة في محاولة تذكر عنوان محل يمكن أن أشتري منه أكياس رمل لكي أضعها متاريس أمام باب الشقة فضلا عن تدبير نيلة زرقاء لدهن زجاج النوافذ، خاصة أن كل المتوفر حاليًا هو نيلة سوداء على دماغ اللي خلفونا.

قررت إرجاء البحث عن وسيلة لتدبير أكياس الرمل والنيلة الزرقاء بعد وضع خطة تموين عاجلة لمواجهة الأزمات التي ستجلبها الحرب التي أطلقها جمال ورجاله بعدد من التصريحات النارية ضد كيد المعتدي. ولحسن حظي أنني أخرت شراء الاعتمادات التموينية والتأمينية اللازمة يوما واحدا، فقد اتضح فجأة أنه في عز الحرب التي كدنا نخوضها مع أمريكا، كان السيد جمال مبارك ذات نفسه يمثُل أمام سادة البيت الأبيض في لقاء حضره بصفته قياديًا بارزا في الحزب الوطني الديمقراطي، وليس بصفته ابنا لرئيس الدولة.

لن نعترض لا سمح الله على زيارة كهذه، ولا على كونها لم تكن معلنة للشعب المصري الذي عرف نبأها من وسائل الإعلام الأجنبية فهذا ليس من حقنا كمواطنين «أدبسيس خرسيس بنأخذ بالجزمة على مظاهراتنا»، لكننا فقط كقراء مخلصين للصحف القومية وكعشاق مدمنين لتصريحات السادة الذين في الوطني باركهم الله، لا ندري هل من حقنا الآن أن نتهم الحزب الوطني الديمقراطي بأنه حزب عميل للولايات المتحدة الأمريكية، كما تتهم الصحف الحكومية قيادات الأحزاب المعارضة والحركات الاحتجاجية إذا التقى أحدها بمسئول أمريكي أو بموظف سفارة أمريكية أو حتى بناشط حقوقي أمريكي. ولا ندري ما هو الفرق الآن بين جمال مبارك وسعد الدين إبراهيم وأيمن نور وهشام قاسم وحافظ أبو سعدة وغيرهم من ناشطي حقوق الإنسان الذين تتهمهم صحف الحكومة عمال على بطال بأنهم يقومون باتصالات مشبوهة مع الأمريكان، ولا نفهم هل احتاط جمال مبارك فـ«طلّع فيش وتشبيه» لاتصالاته مع الأمريكان

وأثبت أنها غير مشبوهة، ولماذا لا يتاح لهؤلاء وغيرهم استخراج فيش لاتصالاتهم لكي ينفوا عنها أي شبهات؟

لا نريد أن نظلم أحدا فالحزب الوطني نفسه يقول على موقعه الإلكتروني إن لقاء جمال مبارك كان بهدف تعريف الإدارة الأمريكية بأحدث تطورات مسيرة الإصلاح السياسي والاقتصادي والاجتماعي، وهي فيما يبدو المسيرة الوحيدة التي ستستثنى من قرار الداخلية بحظر كافة أشكال المسيرات، فليس معقولا أن يتم منع مسيرة يقودها نجل رئيس الجمهورية، وليس واردا أن يتم تطبيق إجراءات «الإصلاح الحذائي» على مسيرة جمال مبارك مثلما يتم تطبيقها على كافة المسيرات والمظاهرات التي يُضرب فيها المتظاهرون بالجِزم.

لكن الوحشة قناة الجزيرة التي فقست الزيارة السرية بالصدفة نقلت عن مصادر سياسية أمريكية أن جمال مبارك تلقى توبيخا شديدا من المسئولين الأمريكان وعلى رأسهم جورج دبليو سي بوش، بسبب ما حدث في مظاهرات الخميس الأسود - بفضل الحكم المبارك أصبح كل خميس لدينا أسود من التاني - وقالت المصادر إن هدف زيارة جمال مبارك كان التخفيف من حدة الانتقادات التي أعلنها البيت الأبيض بحق الحكومة المصرية، وبما أنه لم يتم نفي كلام كهذا صراحة، أصبح علينا أن نسأل بماذا رد جمال مبارك على هذا التوبيخ أو اللوم أو حتى همسة العتاب الرقيقة كما ستصورها الصحف القومية؟

موقع الحزب الوطني يقول إن جمال مبارك حاول أن يشرح أن عملية نشر الديمقراطية تتخللها انتكاسات، ونحن نعرف ذلك طبعا؛ لأننا شعب يحب المخلل والتخلل، ناهيك عن كوننا شعبا متعودا

على الانتكاسات بحكم انتشار أمراض الضغط والقلب والسكر بيننا؛ بفعل أزهى عصور التخلل على الكرسي، بالطبع نشكر سيادته على هذا التوضيح لكننا نحب أن نعرف منه ما هي مواعيد التخللات التي ستنتكس فيها العملية لكي نكون جاهزين بالجلوكوز والشاش والقطن، نعلم أن الانتكاسات «حاجة في علم ربنا» وليس من حق بشر أن يطلب تحديد موعد لها، لكننا نسأله بحق ذكرياتنا وحبنا الجميل والعيش المدعم وملح السيالات المغشوش، أن يعطينا «رينجا» لهذه الانتكاسات لكي نحدد مواعيد نزولنا إلى وسط البلد التي وحشنا التجمع فيها.

عن نفسي فرحت بهذه الزيارة لأنها شرحت لي موقف السيد جمال مبارك الذي تساءلت فور مشاهدتي لصور الإصلاح الحذائي التي طالت المتظاهرين في وسط البلد عما إذا كان قد شاهد هذه الصور وما هو موقفه منها باعتباره لا يتوقف دائما وأبدا عن التأكيد على أن مسيرة الإصلاح لن تتوقف أبدا؟ كنت أريد أن أعرف منه شعوره وقد توقفت المسيرة لركل بعض الذين أرادوا أن يشاركوا فيها، كنت أريد أن أعرف منه ومن زملائه الذين يتحدثون طيلة الوقت عن المواطنة وحقوق الإنسان والفكر الجديد ما رأيهم في إصلاح سياسي يمنع حق التظاهر ويضرب الأبرياء العُزّل بالبيادة؟ وما هو موقفهم الإنساني لا السياسي من هتك عرض صحفية شابة اسمها عبير العسكري خرجت لتأدية واجبها المهني؟ وهل غلت الدماء في عروقهم وهم يشاهدون منظر تلك السيدة الخمسينية المنتمية لحزب الغد وهي ملقاة أرضا شبه عارية على عتبات بوكس إصلاحي أزرق، أم أنهم مركبون تكييفا لعروقهم بحيث لاتغلي أبدا؟

لم يعد هناك مكان لهذه الأسئلة كلها بعد أن أعلن السيد جمال مبارك أن الحكاية كلها «شوية انتكاسات ساعة تروح وساعة تيجي»، صحيح أنه اهتم بأن يعلن ذلك للأمريكان الذين كنا نظنهم كُخّة وليس من حقهم أن يسمعوا منا أي تفسير عما يحدث في بلادنا، ولم يهتم أن يعلن حكاية التخلل الانتكاسي للشعب المصري الذي ألزمته الداخلية بعدم الخروج من بيته يوم الخميس، وهو قرار يضرب جهود الدولة في تنظيم الأسرة في مقتل؛ لأن المواطن إذا منع من التجمع خارج بيته فسيجتمع بزوجته داخل البيت وسينتج عن ذلك التجمع مجيء أجيال قادمة، على الدولة أن توفر لهم الغذاء والكساء ومعاهد الأورام، وقبل كل شيء عناصر الأمن المركزي التي ستضربهم بالجزمة.

عموما «إحنا أو الأمريكان ما فرقتش»، خاصة أننا عدنا أصدقاء من جديد وسنسمع الكلام، ولن نشعر بحرج من المعونة لأن «النبي قِبل الهدية والرئيس قِبل المعونة»، ولن نضطر لشراء أكياس الرمل والنيلة الزرقاء، كما أننا وهذا الأهم لن نسأل أي أسئلة من أي نوع، فالبركة في الأمريكان وأسئلتهم، فقط يبقى سؤال وحيد للسيد جمال مبارك رائد (التخلل الانتكاسي)، ربما لم يسأله الأمريكان بمناسبة اندلاع الإصلاح الحذائي وازدهار موسم تصفيات الأحذية الدائر في البلد: ألّا هو مقاس جزمة حضرتك كام؟

٢٠٠٥

العائشون في الديباجة!

ربما كان أفضل وأجدى لو استبدل الشاعر الكبير سيد حجاب ديباجة دستور ٢٠١٣ البائسة التي صارت حديث الركبان ومسخرة الزمان، بعبارة شعرية من تأليفه يبدو أنه نسيها في زحمة الحياة، كان قد لخّص فيها أحوال مصر منذ قديم الأزل بقوله: «إزاي هنمشي عِدِل والسكة معووجة؟!».

أعلم أن كثيرين يعتقدون أن ما سيجعلنا نمشي عِدِل ويرحمنا من كوارث السكة المعووجة هو الدستور وحده، وغدا ستعلمهم التجارب كما علمت غيرنا من الشعوب، أن ماشطة الدستور لن تفعل شيئا لتغيير الواقع العِكِر؛ لأن الدساتير لا تُصنع لإجبار الناس على السير في طريق الحرية والعدل والعقلانية، بل يصنعها الناس بأنفسهم بعد أن يتوافقوا على أنه لا طريق لتقدّمهم سوى الحرية والعدل والعقلانية؛ ولذلك لم يعش أبدا في تاريخ الشعوب دستور تمت كتابته في ظل حالة صراع أو استقطاب؛ لأن الدساتير التي تعيش طويلا هي التي تكتب بتوافق شعبي بين الناس على المبادئ التي يريدون أن يعيشوا في ظلها أطول فترة ممكنة، وفي ذلك قال الشاعر: «لو الدساتير بتنفع كان دستور الغرياني نفع نفسه».

في الوقت الذي كان أعضاء لجنة الخمسين منهمكين في المفاضلة بين كون «مصر تاجا على رأس إفريقيا» أو بين كونها «رأس إفريقيا» حافا من غير تاج، كانت الخارجية المصرية تصدر بيانا تحذر فيه شباب مصر من عواقب الهجرة غير الشرعية إلى زامبيا. وفي حين كان أعضاء اللجنة يتبارون في الإشادة بفتوحات دستورهم في مجال الحريات، كان ثلة من المخبرين والأمناء يعفقون شابّا متظاهرا من محاشمه كتتويج لالتحام الداخلية بالشعب، وكان زملاء لهم يظهرون في فيديو وهم يضربون القيادي الإخواني عيد مرجونة على قفاه وهو معصوب العينين، في حين يقول له أحدهم: «الليلة هيدخل عليكي عسكري يا سوسو». وفي حين كان أعضاء اللجنة يبكون من فرط التأثر بهدايا الكرامة التي يقدمونها للأجيال القادمة، كان علاء عبد الفتاح ينام في زنزانته حافيا مقيد اليدين إلى الخلف، بينما كان الضباط الذين اقتحموا بيته وضربوا زوجته ينامون في بيوتهم شاعرين بلذة الانتصار على أخطر رجل في مصر. وفي حين كان من سبق لهم أن هيّجوا الدنيا ضد تقنين الإخوان للمحاكمات العسكرية للمدنيين، يتحدثون الآن عن المواءمات السياسية التي تستوجب دسترة تلك المحاكمات مؤكدين أنها لن تضر بريئا أبدا، كان رئيس هيئة القضاء العسكري يؤكد أن خناقتك مع عمال بنزينة وطنية ستدخلك إلى جنة القضاء العسكري، فـ«موِّن من سكات» وقل نعم للدستور. وفي حين كان الخبراء الدستوريون يخوضون مناقشات محتدمة حول صلاحيات رئيس الجمهورية، كان شاب يكتب على أحد القصور الرئاسية بالإسبراي عبارة «الحرية لعدلي منصور»؛ ليعلن انتصارا جديدا لدولة الخيال على دولة الديباجة الموجودة على الورق.

حسنا، أنت غاضب الآن؛ لأني أسخف من عظمة الإنجاز الدستوري القادم، وتتوقع مني أن أنجر إلى تفاصيل الفرق بين مواد الدستور الغرياني والدستور «المغرِّي»، وأنا لن أفعل احتراما لمبدأ «ما تدخلنيش في تفاصيل يا مدحت»، وإيمانا بأنك لو أتيت بأعظم دستور في العالم ينظر إليه جميع سكان الأرض بعين الغبطة وطبقته في مصر، فستندب في عين الغبطة رصاصة من باشا جدع يرى نفسه أعلى من كل دساتير الأرض.

بلغني أن الدستور الألماني يبهرك كثيرا، جميل، طيب، ما هي أعظم مادة أثارت انبهارك فيه؟ هل هي مادة «كرامة الإنسان موفورة» التي تقول كل شيء يتمناه الإنسان في ثلاث كلمات دون رطرطة ولا إنشاء؟ طيب، أعطِ هذه المادة لأحد لواءات الداخلية «المبدورين» في الفضائيات وسيصبح نص المادة «كرامة الإنسان موفورة وكل من يدوس عليها سيأخذ بالجزمة»، ولن تجد المادة المعدلة مشكلة في الحصول على نسبة تصويت عالية، فبلادنا مليئة بمن يؤمنون بنفس ذات اليقين أن الشعب المصري عظيم ورائع وما بيجيش إلا بالعين الحمراء.

سيقول لك أي كتاب محترم عن تاريخ الدساتير إن الدستور ليس سوى انعكاس لتوازن القوى في المجتمع الذي يكتبه؛ ولذلك لن تستغرب عندما تجد أن شهداء ثورة يناير تم ذكرهم مرة وحيدة على استحياء في ديباجة الدستور، بينما تم الإشادة بدور الجيش أربع مرات في بروجرام واحد، وفي حين قرر كاتبو الديباجة أن يبتدعوا بدعة ذكر الأسماء في الدستور فلم يتركوا زعيما سياسيًا شهيرا في القرن العشرين إلا وذكروه، بل إنهم تطوعوا بوصف عبد الناصر

بالزعيم الخالد مجاملة لدولة يوليو التي أجلستهم في كراسيهم دون انتخابات حرة، فإنهم لم يشيروا لا بالأسماء ولا حتى من بعيد إلى الدور الذي لعبه الكتاب والأدباء والفنانون والعلماء في تشكيل وجدان الشعب المصري؛ لكي لا تظن الأجيال القادمة التي يفترض أنهم يكتبون لها الدستور أن تاريخنا هو تاريخ سياسيين وزعماء فقط؛ تلك الأجيال التي كان سيحسن كاتبو الدستور إليها لو أدركوا بأنه إذا كان من يستحق وصفه بالخلود في دستور الشعب فهو الشعب وحده، طبقا لعبارة عظيمة كتبها سيد حجاب ونسيها أيضا، كانت تقول إن «الباقي هو الشعب ولا في قوة ولا صعب يهد عزم الشعب».

على سيرة البقاء، ربما كان حظ هذا الدستور في البقاء أفضل من سابقيه بحكم أنه محمي بقوة السلاح، لكن المؤكد أنه سيبقى مثل الدساتير السابقة على الورق فقط؛ لأنه لا يخص إلا كاتبيه والقوى التي يمثل مصالحها و«الفقداء» الدستوريين الذين تتحدد مواقفهم من أي دستور طبقا لكونهم شاركوا في كتابته أم لا، في حين سيبقى «دستور الغابة» المنظم الحقيقي للحياة في مصر كالعادة؛ حتى تتمكن الأجيال الشابة ـ التي ليس لها كتالوج ولا ريموت كونترول ـ من فرض دستور يعبر عن خيالها الجديد الذي لا يرضى لمصر بأنصاف الحلول، ولا يقبل بتلفيقات «خلي شوية عليَّ وخلي شوية عليك»، وحتى يحدث ذلك يوما ما، سيبقى من هذا الدستور شيء مهم في وجدان الناس، هو أنهم عندما يصفون شخصا بأنه مغيب عن الواقع وغير مدرك لحقائق الحياة من حوله، لن يقولوا إنه «عايش في البَلالة»، بل سيقولون إنه «عايش في الديباجة».

ديسمبر ٢٠١٣

التدريجيون أنت إمامهم!

ما إن استمعت إلى خطاب الرئيس مبارك في منتدى دافوس بشرم الشيخ حتى قلت في عقل بالي: «الآن آن لذي التي شيرت الأحمر أن يستريح».

وإذا كنت قد نسيت من هو صاحب التي شيرت الأحمر فدعني أذكرك به، إنه ذلك الشاب المغدور الذي تناقلت صورته وكالات الأنباء العالمية وهو محاط بثلة من العساكر والضباط والبلطجية الميري وهم يكيلون له البوكسات والشلاليت والقفيان، وعلى وجهه ترتسم علامات ذهول لا ينبع من الإحساس بالألم والمرارة بقدر ما ينبع من إحساس عارم بعدم فهمه لما يحدث له، كأنه يريد أن يصرخ في الباطشين به: « بتعملوا كده ليه؟ ده أنا باقول رأيي بشكل سلمي ديمقراطي.. مش سيادة الرئيس بيدعو المواطنين للمشاركة السياسية وبيحذرهم من السلبية؟ مش إحنا في أزهى عصور الحريات؟ بتعملوا كده ليه؟ ما تودوش نفسكو في داهية.. لو الرئيس شافكو وإنتو بتعملوا كده فيا هيزعل قوي منكو»، في الحقيقة لا أدري إذا كانت زمرة المحيطين به قد أعطته الفرصة لكي ينطق أساسا وهم يعمونه ويخرسونه ضربا بالنواصي والأقدام، ولا أدري أين هو الآن هل

هو معتقل في أحد المعتقلات الوطنية الديمقراطية المباركة أم أنه طليق وحي لا يرزق، لكن الذي أدريه أن ذلك الشاب المغدورظل بالتأكيد يسأل نفسه طويلا عن سر ماحدث له، وعن الذي دفع إخوته في الوطن من أبناء الشرطة «خادمي الشعب» لكي يعاملوه بكل هذه الوحشية، ولذلك فكل ما أتمناه الآن أن تكون الفرصة قد سنحت له لكي يشاهد أو يستمع أو يقرأ خطاب الرئيس مبارك في منتدى دافوس لكي يهنأ نفسا ويقر عينا، ولا يسمح لشيطانه أن يوسوس له بأن الرئيس مبارك تراجع عن الإصلاح السياسي الذي اشتهر بإنتاجه وتصديره.

كل ما في الحكاية أننا فهمنا الرئيس مبارك خطأ أثناء حملته الرئاسية الأخيرة فأُلقي في روعنا أنه مع بدء ولايته الجديدة سيملأ مصر عدلا وإصلاحا وديمقراطية، كما مُلئت في ولاياته السابقة هو وسابقيه شمولية وطوارئ وأمنا مركزيّا، ولأننا كمصريين نعاني عيبا شائعا في تعاملاتنا الحياتية هو أننا لا نجرب الحاجة قبل أن نشتريها، ثم نشكو من أنها بايظة أو ضيقة أو خرج مصانع؛ لذلك فإن الشاب ذا التي شيرت الأحمر والذين معه على اختلاف ألوان تي شرتاتهم اندفعوا إلى الشوارع لممارسة ما ظنوه حقوقهم الديمقراطية من تظاهر وهتاف واعتراض وتضامن مع القضاة، دون أن يسألوا أولا عن مقاسات ومواصفات الديمقراطية المسموح لنا بها؛ ولذلك جرى لهم الذي جرى لهم، ولذلك ـ وهذه آخر لذلك وربنا أستخدمها الآن ـ ومن موقع المسئولية الأبوية الرئاسية كان لزاما على الرئيس مبارك أن يشرح لهم في أقرب فرصة سر ما جرى لهم؛ لكي لا يتركهم فريسة لوساوس الشيطان وأحابيل النفس الأمارة بالسوء،

حيث أعلن سيادته في مؤتمر دافوس ـ شرم الشيخ «دعوة لإصلاح ديمقراطي تدريجي لايؤدي إلى الفوضى وينبع من داخل المنطقة ومن فوق أرضها ويحاذر من طفرات متسرعة تتعجل نتائجه»، لقد كانت هذه الجمل القصيرة بمثابة عصا موسى التي تلقف ما يأفك المعارضون والمشككون في مسيرة الإصلاح الذين حاولوا بعد ما حدث لذي التي شيرت الأحمر أن يوهموا الناس أن الرئيس تخلى عن وعوده بالإصلاح السياسي الشامل والكامل، بينما هم يعلمون أن الإصلاح تدريجي وليس شاملا، ألا ساء ما يزرون، لكن الرئيس مبارك بحمد الله فضحهم وأكد أن إصلاحنا تدريجي، وبما أنه تدريجي فهو يتحمل أي انتكاسات كالتي حدثت لذي التي شيرت الأحمر، والحمد لله نحن كشعب نحب التدريجي قوي سواء في الإصلاح أو غيره، ولا نحب الإصلاح الشامل أو السريع أبدا، فالشامل والسريع يتعباننا ويحدثان لنا مضاعفات لأننا أصلا كشعب صحته على قده ولا يتحمل الشامل والسريع أبدا، ولا يمكن أن يفهم أهل المعارضة في كفاية وأخواتها مصلحتنا أكثر من رئيسنا، فإذا كانوا قد طلعوا لنا في المقدر من سنتين إلا قليلا فرئيسنا «معاشرنا» منذ أكثر من ثلاثين عاما كنائب ثم كرئيس، وهو أدرى بنوع الإصلاح الذي يلفق معانا ويحل مشاكلنا، وما دام سيادته شايف إن الإصلاح التدريجي أنسب لنا فليفعل بنا ما شاء، بارك الله له فينا وبارك لنا فيه وجمع بيننا على خير.

بعد أن قلت: آمين، دعني أعلن لك رفضي لتخرصات العديد من المعارضين المغرضين الذين ما إن سمعوا كلمة تدريجي وهي طالعة من خطاب الرئيس حتى طفقوا سخرية واستهزاء وتشكيكا، عادتهم

ولن يشتروها، فأخذوا يتندرون على حكاية الإصلاح التدريجي متسائلين: «هل هو تدريجي لفوق ولا لتحت؟ يعني جرت العادة أن يتم ضرب المتظاهرين بالعصي الكهربائية والخشبية.. ثم أصبح يتم سحلهم في الشوارع وضربهم بالأحذية وهتك عرض المتظاهرات منهن.. فهل هذا محسوب ضمن التدريج، أم لا؟ وهل يمكن أن نفهم التدريج القادم بأنه ضرب بفردة الجزمة اليمين ثم بالفردة الشمال؟»، ولهؤلاء أقول: خسئتم إن الضرب التدريجي يتم بالفردتين معا في نفس الوقت لكي لا ينطق أي عميل منكم بتشنيعة من تشنيعاته، كما أن قياس اتجاه وحجم التدريج أمر ليس من سلطتكم تحديده، بل هو قرار سيادي من حق أجهزة الدولة وحدها، فهي أدرى بالاتجاه الذي يحتاج المواطنون لـ«التدريجي» فيه، كما أنها تتبع أحدث ما توصل إليه العالم من تكنولوجيا في التدريج، وعلى رأسها أن التدريج أمر متغير بحسب الظروف، فإذا كانت المصلحة الوطنية تقتضي أن يتم ضرب ذي التي شيرت الأحمر بالجزمة، فربما تغيرت الظروف التدريجية في المظاهرة القادمة وتمت العودة لضربه بالعصا فقط، وإذا كان التدريج يقتضي تمزيق ملابس صحفية وهتك عرضها، فقد يقتضي التدريج هتك عرضها من فوق الهدوم في مظاهرة أخرى، ولو كنتم على صلة بنظرية النسبية لأينشتين لعلمتم أن العالم قد تجاوز من زمان وإلى غير رجعة حكاية أن تكون هناك قواعد ثابتة للإصلاح والتعامل مع المواطنين، خاصة والمواطنون كما يبدو لم يشتكِ أحد منهم من التدريجي أبدا، بل هو على أقفيتهم وأجسادهم زي العسل بحمد الله.

تخرص آخر أطلقوه هؤلاء المعارضون يقولون فيه وبئس ما قالوا:

«هو اشمعنى التدريج في الإصلاح بس؟ ليه ما يبقاش في تدريج في الفساد.. أو تدريج في نهب المال العام.. أو تدريج في بيع القطاع العام.. أو تدريج في الانحياز للأغنياء وسحق الفقراء؟»، ولهؤلاء أقول: خسئتم مرة أخرى بل وخسئتم إلى الأبد، من قال لكم إن التدريج يتم تطبيقه في الإصلاح؟ كيف سولت لكم أنفسكم الظالمة أن تنكروا أن هناك تدريجا في بقاء الرئيس مبارك على الحكم، يعني ألم يقل سيادته أولا إنه لن يرشح نفسه لفترة رئاسية ثانية ثم باسم الله ماشاء الله آدينا داخلين في الفترة السادسة وبنتكلم في السابعة، تدريج ده ولا مش تدريج؟ بلاش، كيف تنكرون أن هناك تدريجا في توريث جمال مبارك وإيصاله إلى كرسي الحكم، ألم يُقَلْ في البداية إنه مجرد شاب بهي الطلعة بيحب مصر زيادة عن اللزوم ويريد خدمتها من خلال جمعية شباب المستقبل والعمل الأهلي، وكلما اعترض أحد على ذلك قلنا له: وإنت مال أهلك ده عمل أهلي، ثم فجاة وجدناه يدخل في زواريق الحزب الحاكم ليمارس العمل السياسي داخله، ثم فجأة وجدناه يشكل لجنة قالوا لنا إنها لجنة للتصورات والأفكار والسياسات ليس إلا، ثم اتضح أنها هي التي تختار الوزراء وتعزلهم وترسم سياسات وخطوات الحزب وتعين قياداته، ثم أصبح أمينا عامّا مساعدا وفي كلام على أنه سيصبح أمينا عامّا للحزب مرة واحدة، طب بذمة النبي يا ظلمة تدريج ده ولا مش تدريج؟ أما ما تقولونه عن عدم تطبيق التدريج في الفساد والنهب وبيع القطاع العام فهو يدل على جهل فادح وفاضح من قبلكم، كما أنه يكشف عدم حبكم لأهل بلدكم الطيبين، فلو كنتم تحبونهم حقّا لعلمتم أن التدريج في الفساد والنهب والبيع أمر متعب صحيّا ومرهق نفسيّا ومدمر

عصبيّا، وسأضرب لكم مثلا بسيطا لكي تفهمه عقولكم القاصرة.. عندما يصاب المرء منكم بجرح ـ يا رب ما تخفوا منه ـ ويضع عليه بلاستر، ثم يأتي موعد تغيير الجرح، هل الأفضل أن يتم نزع البلاستر مرة واحدة، أم أن يتم نزعه بالتدريج؟ بالطبع يعلم القاصي والداني في بلد المجاريح مصر أن نزع البلاستر مرة واحدة أفضل من نزعه بالتدريج، وهذا ما يفعله النظام المبارك بشعبه الطيب، فهو ينزع ثرواته ومصانعه وأمواله العامة مرة واحدة؛ لكي لا يشعر بألم على فقد هذه الثروات والمصانع والأموال العامة. عرفتم بقى أن التدريج مش لعب عيال ومش أي حد يدرِّج، وأن الموضوع فيه تخطيط جامد وفوق مستوى ذكاء المواطن المعارض أو الساخط.

أتمنى أن أكون قد أوضحت ما فهمته من خطاب السيد الرئيس عن الإصلاح التدريجي في منتدى دافوس المنعقد بشرم الشيخ، والذي تزامن مع دفس المعتقلين داخل البوكسات وشرمهم في شوارع القاهرة، وتدريج ملفات جديدة لهم داخل أدراج أمن الدولة، ولعل شرحي هذا يسهم مستقبلا في اختفاء ملامح الذهول النابع من عدم الفهم على وجه أي ذي تي شيرت أحمر يتم سحله في أي مظاهرة قادمة، ولا أراكم الله دافوسا داخل بوكس لديكم. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه واسألوه أن يخلصنا مما نحن فيه فورا ودون تدريج.

٢٠٠٦

ما صدقنا تهدا!

استخرج الخطأ من الفقرة التالية التي قالها اللواء سماح قنديل محافظ بورسعيد لخطباء وأئمة مساجد محافظته: «أقسم إنه من سيخالف هذا الكلام لن يجد إلا أشد صفعة على وشه بكل ما تحتويه الكلمة من معنى، يعني من يخالف كلامي هيتحاسب وهيتحاكم وهيترمي وأي حاجة بتخيلها هاعملها، البلد فيها مشاكل وما صدقنا تهدأ».

بسم الله الرحمن الرحيم، إذا كانت إجابتك أن خطأ المحافظ يكمن في تهديده الخطباء والأئمة بالصفع على الوجه، فهي للأسف ليست الإجابة النموذجية؛ لأن أحد المشايخ المرصوصين أمامه في الفيديو الذي نشرته صحيفة (المصري اليوم) يصل إلينا صوته وهو يقول: «توكلنا على الله»، ومع أننا لم نفهم هل كان فضيلته يقصد «توكلنا على الله هنتصفع»، أم «توكلنا على الله هيتعمل فينا أي حاجة تتخيلها»، إلا أننا لم نسمع منه أو من بقية المشايخ عبارات رفض واستنكار تذكر المحافظ بقصة مقولة عمر بن الخطاب: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا»، وهي القصة التي لا يوجد خطيب إلا ورواها مليون مرة في حياته للتدليل على عدل الإسلام؛ لذلك يظل استنكار الصفع مسئولية كل مصفوع، خاصة وقد علمتنا التجارب أن

من يصفعه المحافظ تزداد فرصته في الحصول على شقة من شقق المحافظة، لو قرر عدم «عمل سِياح في الجرايد».

ستكون إجابتك مثالية لو أدركت أن خطأ المحافظ يكمن في جملة «وما صدقنا تهدا» التي تصلح كنموذج للطريقة التي يفكر بها كثير من أفراد سلطة اللواءات في التعامل مع أوضاع البلد والتي يمكن تلخيصها في الآتي: «حصل في البلد مطلع ٢٠١١ أحداث تقول الأجهزة الأمنية السيادية إنها مؤامرة خارجية، ويقول البعض إنها مؤامرة استغلت أخطاء ابتعاد سيادة الرئيس الأسبق مبارك عن العسكريين واعتماده على المدنيين الذين خربوا البلد، ويرى البعض أنها ثورة شعبية حماها الجيش واستغلها المخربون والغوغاء، وأيًا كان ما حدث لن نختلف، كل ما في الأمر أن الموضوع خلاص انتهى، والبلد هدأت وكل من يفكر في زعزعة هذا الهدوء سنفعل معه أي حاجة تتخيلها من أجل مصلحة الوطن».

لن أسألك عن الذي كان سيحدث في البلاد لو كان قيادي إخواني قد أطلق هذا التهديد بالصفع، أي مناحة كانت ستنصب في البلاد حتى تتم إقالته، ولن أسألك لماذا لم تنصب نفس المناحة عندما قام محافظ البحيرة قبل شهرين بصفع عامل نظافة لأنه حصل على تفاحة من مواطن، مثلما حدثت مناحة عندما تم إطلاق الكلاب البوليسية على المتظاهرين الذين حاصروا محافظ كفر الشيخ الإخواني السابق؟ لن أسألك عن هذا فأنت أصبحت تعلم أن كرامة المواطن تخضع لشريعة «الخيار والفاقوس» مثل العدالة ومثل حرية الإعلام ومثل حرمة الدم، فكل هذه ليست سوى أوراق كلينكس نستخدمها عندما توافق مصالحنا، ونبصق فيها عندما لا تكون على كيفنا.

ليس عندي أدنى شك أن اللواء المحافظ كان يقول كلماته بحماس وهو يستحضر في داخله ثقل أعباء منصبه، وليس عندي أدنى شك أن هناك كثيرين لو قال لهم المحافظ تهديده فسيكون ردهم أيضا: «توكلنا على الله»، خاصة إذا كانوا من أنصار مدرسة «إحنا مانجيش غير بكده»، ولكن كل هذا لا يقلقني بقدر ما يقلقني اليقين الذي قال به اللواء المحافظ: «وما صدقنا البلد تهدا». أعلم أنه قالها قبل كل ما حدث في محمد محمود وسيناء، لكن يبقى مع ذلك أن نسأل: هل كان البلد هادئا قبل ذلك، وهل سيكون هادئا بعده، وهل هناك أي قرار يدعو للهدوء تم اتخاذه منذ لحظة التفويض الميمونة؟ وهل ما نقرؤه عن التقارير الأمنية التي تؤكد أن ما جرى منذ ٢٥ يناير لم يكن سوى مؤامرة خارجية، سيساعد سلطة اللواءات على تهدئة البلاد؟ ومتى يدرك الجميع في هذه البلاد حكاما ومحكومين أن الوضع في مصر أعقد وأخطر من الانشغال بتفاهات: هل كانت ٢٥ يناير ثورة أم مؤامرة، وهل كان ٣٠ يونيو ثورة أم انقلابا؟ لأننا أمام بلد منكوب بحكامه ومحكوميه، فهو ما إن بدأ يتعافى من آثار هزيمته ويسترد أنفاسه بعد نصر ٧٣، حتى بدأت حملات النهب المنظم لتجريف ثرواته البشرية والمادية والتي ثار في ٢٠١١ لإيقافها، حالما بأن يضع قدميه على أول الطريق إلى المستقبل، وها أنتم تريدون له الآن أن يصنع نسخة أخرى من ماضيه المشوه.

للأسف، «ما صدقنا تهدا» ليست جملة عابرة بل هي عقلية راسخة في تفكيرنا السلطوي، كان يفكر بها عبقري آخر هو الذي أخذ قرار بناء نصب تذكاري في ميدان التحرير يذكر الضحايا بأن قتلتهم لا زالوا دون عقاب، وعبقري آخر قرر أن يكتب بيان الداخلية الذي

يوجه التحية لشهداء محمد محمود، وبالمرة يقوم بتحميل مسئولية دمائهم هم وسابقيهم ولاحقيهم للإخوان، مفترضا أن من كانوا إلى جوارهم وهم يقتلون برصاص الداخلية وقتها إما قتلوا برصاص الداخلية أيام كانت تقتل من أجل مرسي وإما هاجروا وإما فقدوا ذاكرتهم وإما فقدوا شرفهم.

العباقرة إياهم فكروا بنفس المنطق الذي فكر به من جلسوا على نفس مقاعدهم منذ الخمسينيات وإنت نازل ومتدحدر: «الموضوع خلص والإخوان شالوا الليلة فيالله بالمرة نقفل الملفات دي كلها، وأهو نصب تذكاري على كلمتين حلوين على التعويضات اللي اتدفعت وكل سنة وانت طيب، وخلينا نبص لقدام بقى واللي مش هيعجبه الكلام هيبقى إما إخوان وإما شيوعيين وإما طابور خامس أمريكي إسرائيلي». تخيل لو كنت قلت لك منذ أسبوع إن تركيبة «إخوان وشيوعيين» التي ظلت متداولة لتوصيف العدو الداخلي طيلة عهدي عبد الناصر والسادات ستعود ثانية للظهور، كنت ستسخر مني بالتأكيد، لكن آديها ظهرت في صحيفة الدولة الرسمية على لسان مصدر مسئول معلّقا على هدم متظاهرين للنصب التذكاري، الذي لم يكن أحد سيقترب منه لو كانت الحكومة قد تذكرت خطورة النصب باسم الشهداء، وقررت أن تسمي كتلتها الخرا.. سانية القبيحة «نصب ما صدقنا تهدا».

ستهدأ بالعدل يا سادة، والله لن تهدأ بغير العدل، وإلا كان غيركم أشطر.

٢٠١٣

انتخبوا الرئيس الطائر!

منذ أن قرأ أحد أصدقائي عن الجولات الطائرة التي سيقوم بها الرئيس مبارك باستخدام الطائرة الهيلكوبتر لكي يلتقي بأفراد شعبه المحب حتى امتنع تماما عن الخروج إلى البلكونة بصحبة كوباية الشاي المغلي وهي العادة العلنية الوحيدة التي يحرص على أدائها والاستمتاع بها، فباقي عاداته كلها سرية والعياذ بالله.. وليس الأمر أنه لا يحب لقاء الرئيس أو يكره أن يظل في انتظاره مثل أم كلثوم «حاططا إيده على خده وعاددا بالثانية غيابه»، بل كل ما في الأمر أنه يخشى أن يسرح في مراقبة نساء الجيران وهن ينشرن الغسيل ثم يفاجأ بالرئيس أمامه يلوح له من الهيلكوبتر فتندلق منه كوباية الشاي وتسقط على عم جودة بتاع الفحم الذي يفرش بضاعته أمام دكانه، ولأنه لا يقوم بشرب الشاي إلا وهو سخن مولع فحتما سيشعل ذلك الفحم ويتسبب للحارة في كارثة هي في غنى عنها، خاصة أنها لا زالت تتعافى من آثار انفجار ماسورة المجاري التي استندلت وانفجرت لكي تحرج نظام الرئيس مبارك الذي لم يقصف في عهده قلم ولم تنفجر ماسورة مجارٍ ولم يستيقظ ضمير رئيس تحرير.

وما زاد من مخاوف صديقي هو ما قرأه في (الأهرام) أن الدولة

ستوفر لكل مرشح يقدر على دفع ثمن الطيارة فرصة استخدامها ليقوم باللف على أنحاء المحروسة آخذا الجماهير في حضنه، عشان مايبقاش في حد أحسن من حد، ومن ساعتها وصديقي متخيل أن «الهروكبتر» كما يسميها يمكن أن تحط على سطح بيتهم المطلوب تنكيسه من أيام وزير الزلازل والبحث العلمي الدكتور عادل عز ربنا يهز عدوينه؛ ولذلك فقد ذهب إلى قسم الشرطة من أجل تحرير محضر يحذر فيه أي مرشح رئاسي من النزول على سطح البيت ويحمله المسئولية كاملة، لكنه عاد من القسم يحمل في يده نداء يطالب فيه الرئيس مبارك أن يقوم بالنزول بطائرته الهيلكوبتر على سطح بيتهم ليحظى البيت بهذا الشرف الرفيع، بل وقام بإراقة دمه على جوانب هذا النداء الذي مضاه بالدم لكي يثبت جدية طلبه، ولم نفهم سر هذا التحول إلا عندما وجدناه ينظر إلى مروحة السقف وينخرط في البكاء ليتضح أن الضابط قام بتعليقه بلبوصا في المروحة لكي يضعه في أجواء ركوب «الهروكبتر» ويشرح له أن مصر هي مصر مبارك، وليس من حق فسل مثل صديقنا أن يقرر المكان الذي يمكن أن يذهب إليه مبارك حتى لو كان افتراض أن يأتي الرئيس إلى مكان حقير كهذا افتراضا مستحيلا استحالة فوز فوزي غزال بمنصب رئيس الجمهورية.

بعد الحادثة الأليمة هذه لم يعد صديقنا يبرح سطوح بيتهم كث اللحية منكوش الشعر طويل الضوافر حاملا في يده كوباية الشاي المولعة ولسانه لا يكف أبدا عن غناء أغنية قديمة جدًا لا ندري سر تمسكه بها هي أغنية «دع سمائي فسمائي محرقة».

٢٠٠٥

عاجل من جبريل!

«الأهم من الشغل تضبيط الشغل»، تلك حقيقة لم يتذكرها وزير الأوقاف الأسبق الشيخ الأحمدي أبو النور حين استخدم في خطبة عيد الأضحى الرسمية حديث (إذا أحب الله عبدا دعا جبريل فقال إني أحب فلانا فأحبه..) كدليل على أن الله وملائكته يحبون المشير عبد الفتاح السيسي وإلا «ما تحقق له القبول على الأرض وأحبه العالم».

لم يكن أحد سيلوم الشيخ لو قال إن كلامه مجرد استنتاج شخصي؛ لأن السماء توقفت منذ اكتمال الوحي عن إرسال رسائل تعبر عن موقفها مما يحدث على الأرض، وإلا لما كان الله قد أكمل لأمة المسلمين دينها وجعل حسابه معها يوم الحساب، يوم لا ينفع جيشٌ ولا بنون، أو لو كان أكثر صراحة فقال إنه يعرف أن الملائكة لا شأن لها بصراعات حكام الأرض، لكن بما أن الشيخ يوسف القرضاوي اعتبر أن رجب طيب أردوغان مؤيد من الله وجبريل ملائكته، فلماذا لا يستجلب هو أيضا الملائكة لنصرة السيسي، «جت على السيسي يعني؟»، أو لو كان أكثر إقناعا ومنطقية فقال إنه متأكد من وجود ملائكة يحبون السيسي أبرزهم عزرائيل، فلا يوجد أحد ساعده في مهمته مؤخرا كما فعل السيسي ورجال دولته، أو لو كان أكثر حيطة

فأكد على أن استفادة السيسي من الحديث لا تعني تطبيقه حرفيًا على غيره، وإلا لكانت مونيكا بيلوتشي أحق من السيسي بما قاله الشيخ، فليس على ظهر البسيطة أحد يحبه عباد الله مثلها.

الشيخ معذور، أخذته الحماسة فقرر أن يضرب «عيارين محبة» في حضور السيسي، لعله يقدم أداء أكثر إمتاعا من الذي يقدمه مفتي الديار الغارقة علي جمعة أو الدكتور سعد الدين البحبحاني ـ الهلالي سابقا ـ لكنه لم يدرِ أن ما قاله يمكن أن يكون سلاحا في أيدي أعداء دين الله، الذين يمكن أن يبثوا دعاياتهم الإلحادية في أوساط شبابنا الغر اليافع، ليطلبوا منهم أن ينظروا إلى أحوال مصر التي لا تسر عدوا ولا حبيبا، ويسألوا أنفسهم: إذا كان هذا هو حال البلد الذي يحكمه رئيس يحبه الله وملائكته، فكيف سيكون إذن حال البلاد التي يحكمها رئيس يحبه مردة الشياطين وعتاة الأبالسة؟

أتعبت مصر الملائكة معها كثيرا خلال العامين الماضيين، فقد أضيف إلى مهامهم التي قرأنا عنها في كتب التراث مهمة عويصة هي دعم الرؤساء المصريين، في أيام حكم سيئ الذكر محمد مرسي تم استدعاء الملائكة كثيرا لدعمه، وبعد ثلاثين يونيو كان لدى أكثر من ملاك مهم حضور بارز في ميدان رابعة العدوية طبقا لما ادعاه بعض الممتطين لمنصتها، ولولا أن الملائكة معصومون من غدر الرصاص لكانوا قد انضموا إلى قائمة ضحايا مذبحة رابعة من البشر الذين لم يصدقوا فقط أن محمد مرسي مدعوم من ملائكة السماء، بل صدقوا أيضا أن جيشهم وشرطتهم لا يمكن أبدا أن تقوم بممارسة القتل الجماعي بصورة لم تعرف لها مصر مثيلا من قبل.

بالطبع، لم تكن العبارات الخرقاء التي قالها الشيخ ستمر مرور الكرام لو كانت قد صدرت منه في حضور محمد مرسي، وكان سينقض عليه حينها مئات الغيورين على الدين، وآلاف المفجوعين على مدنية الدولة، ولم تكن بعدها ستفتح حنفية إلا وانهمرت منها دموع مدرارة تبكي على الدين الذي يتاجر به المشايخ، وتنعي الدولة التي هُتكت مدنيتها في وضح نهار العيد، وكانت ساحات وغى التوك شو ستمتلئ بالفرسان الذين سينهالون طعنا في مرسي لأنه صمت على كلام الشيخ، ولم يصعد إلى المنبر ليجيء به من رقبته ويحثو في وجهه التراب كما أوصى نبينا بأن نفعل مع المداحين، فما بالك بالهجاصين ممن يلوون أعناق النصوص لإرضاء الحكام، لم يحدث كل هذا ليس لأن دولة السيسي ثقيلة اليد وقرصتها والقبر؛ بل لأن الوطن مستهدف ويمكن للتذكير بالحقيقة المرة أن يجعله «زي سوريا والعراق»؛ لذلك لا ضير إذا تأخرت مدنية الدولة إلى أجل غير مسمى، ولا بأس من التجارة بالدين إذا كانت «على الناشف».

هذا وحتى يتوب الله علينا من المعايير «أم ذمة أستك»، سيبقى سيدنا جبريل حاضرا في خدمة كل رئاسات الجمهورية، إلى أن يصحو المصريون يوما ليجدوا على موبايلاتهم رسالة قصيرة من جبريل عليه السلام تقول لهم: «حِلّوا عن سمايا».

٢٠١٤

أشياء مدورة محشية؛

خذها مني نصيحة مع أنني لا أحب أخذ النصائح أبدا. إذا سألك أحد عن حال مصر فقل له على الفور: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل».. هل تريد تبريرا لذلك؟ وماله؟ هل أتاك حديث الأشياء الصغيرة المدورة المحشية بأشياء غير مفهومة؟ فكفى به تبريرا لأن تردد ماقلته لك وأنت مطمئن.

منذ أسابيع كان (الإخوان المسلمون) لايكتب لهم أن يأكلوا شيئا في هذا البلد سوى بيادات الأمن المركزي، فإذا بخمسة منهم ما بين غمضة عين وإنعماصتها يأكلون على مائدة رئيس الجمهورية أشياء صغيرة مدورة محشية بما لا يعلمون، طبقا لتصريح النائب الإخواني الحاج محمود مجاهد الذي زار مع أربعة من إخوانه قصر الرئيس الأسبوع الماضي في يوم الكادر العظيم.

يا إخواني من قال إن هناك أزمة ثقة بين النظام المبارك والإخوان فقد أخطأ ووجبت عليه الكفارة. أما كان لدى الحاج محمود وإخوانه من وافر الثقة بالرئاسة ما جعلهم لا يترددون لوهلة في أكل ما قدم إليهم دون أن يخافوا خطر دس شيء أصفر في حشوه فيصحوا ليجدوا أنفسهم على ثرى صحراء القطامية في حال يرثى لها، تماما

كما حدث لأخ لهم تقدم إلى مديرية الأمن للترشيح في انتخابات الشورى فوضعوا له ماجعله يفيق فاقدا أعز ما يملك المتقدم للترشيح، ألا وهو فرصته في الترشيح.

هل هناك ثقة أكبر من تلك التي تجعل الحاج وإخوانه لايسألون الرئيس أو أحدا من آله أو مساعديه عن ماهية حشو ما يأكلونه ولا حتى من باب الاحتراز الشرعي، إذ لربما كان حشو ما «لغّوه» من ساليزون مصنوعا من دهن المنخنقة أو ظفر الموقوذة أو شعر النطيحة، لكنهم ضحوا واختاروا الثقة في المطبخ الرئاسي ولم يسألوا عن أشياء لو بدت لهم لساءتهم.

يوم أن قرأت الخبر هتفت لنفسي: «معقولة الكلام ده صح؟»، وأزعم أن كثيرين شاركوني في هتافي؛ ضباط أمن دولة قيل لهم إن الإخوان وحوش لا تستحق سوى السحل، وكتاب أمن دولة كلفوهم أن يقنعوا الناس أن الإخوان يأكلون العيال الصغيرة بعد حشوهم بأشياء غير مفهومة، وقواعد إخوانية أمروها بالدعاء في السجود على النظام، ومُنَظِّرين أفتوا بوجود صفقة بين جريدة الدستور والإخوان تجعلها تدافع عنهم في الباطل والعاطل ففوجئوا بالدستور تنتقدهم وبشدة.

بعد أن قال جميع هؤلاء الجملة التي قلتها بحذافيرها أو مصحوبة بحسبنات أو أصوات سكندرية أو «حواشِ زينهُميّة»، بدءوا بالتأكيد في التحليلات والتنظيرات «تفكير غويطٌ لسنا على قده.. تمهيد لصفقة تمرير للتوريث.. كيد للأمريكان من باب خذوا سعد إبراهيم وسنأخذ الإخوان.. إدراك متأخر كالعادة أن الإخوان سيكونون أكثر ولاء من أندال الوطني، على الأقل سيبايعون الرئيس أميرا للمؤمنين ولن يكون بحاجة لشيخ الأزهر بصوته الذي يجلب النعاس».

وكلما أطلق أحد تنظيرة وسألني، أو سمع تنظيرة وسألني، قلت وكأنني لعبة أطفال صيني علّقت بعد دقائق من شرائها: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل»، لكن ما أعلمه للأمانة هو أن ما حدث يوم المدورات المحشية لو كان نابعا من رغبة صادقة في بدء حوار وطني مع كافة التيارات السياسية لابتهجت له دون تردد، فأنا لست من أنصار المعارضة عمال على بطال، وبداخلي رغبة دفينة في أن يتخذ الرئيس مبارك قرارا حكيما بجد من أجل إنقاذ هذا البلد الذي احتكر حكمه ربع قرن فقط؛ لكي أثبت للبعض أنني تعلمت في المدرسة كيف أكتب كلمة نعم.

على أي حال، أنا مبتهج لكون ما حدث يمكن أن يثبت لقواعد الإخوان المسلمين أن يساريّا نبيلا كالدكتور محمد السيد سعيد يمكن أن يكون أقرب إلى خلق الإسلام في التعامل مع الحاكم والنصح له بجرأة لا تخلو من الأدب، وأن السياسة ليس فيها أحكام مطلقة أو شعارات تجعل تصورك للإسلام هو الحل؛ لأنك يمكن أن تجد نفسك تأكل أشياء مدورة محشية مع من رفعت ضده تلك الشعارات، فتجد نفسك مجبرا على مجاملته بالقول إنه رمز مصر لمجرد أنه أطعمك حاجات مدورة محشية أصبحت بعدها مواجها بأسئلة أقلها إحراجا: لماذا إذن كنت تعارض من تراه رمزا؟ وأوسطها إحراجا: ماذا كنت ستقول عنه إذن لو أطعمك «ستيكا بالشامبينيون ويل دن»؟ أما أكثرها إحراجا فهو: هل يأكل إخوانك المعتقلون شيئا محشيّا مدورا غير عصاية الباشا الضابط؟

يونيو ٢٠٠٧

ومالها كوريا الشمالية يعني؟

بأسرع مما توقعنا ظهر تفسير معتمد لأحلام الفريق السيسي، لكنه لم يأتِ من فضيلة شيخ الأزهر، بل جاء من مصادر سيادية قالت لصحيفة (المصري اليوم) إن هناك «مخططا أمريكيًا غربيًا لإشاعة الفوضى وعرقلة ترشح السيسي للرئاسة»، وجاء في نص الخبر أن الولايات المتحدة شرعت في تنفيذ الخطة بالتنسيق مع ممثلين عن مخابرات ألمانيا وفرنسا وبريطانيا وإسرائيل ومندوب عن حلف الأطلنطي، بعد اجتماع عُقد بقاعدة عسكرية أمريكية في دارمشتاد بألمانيا، وأن أمريكا بالتعاون مع حلفائها ستستخدم أسماء ٦ شخصيات متعاونة معها للترشح للرئاسة لعرقلة وصول السيسي إلى مقعد الرئاسة.

هكذا إذن، لن يصبح من حق أحد آخر أن يحلم بالرئاسة؛ لأن ترشحك للرئاسة صار طريقك إلى لبس قضية تخابر، إن لم يكن رسميًا فعبر الحملات الإعلامية التي تضرب فوق الحزام وتحته وفين يوجعك، حيث سيصير على كل مرشح يرتكب حماقة الترشح أمام السيسي أن يخصص مؤتمراته الانتخابية للحلفان بالطلاق والنعمة الشريفة إنه ليس عميلا لمخابرات أمريكا وألمانيا وفرنسا وبريطانيا

وإسرائيل وحلف الأطلنطي، هذا إن وُجِدَ متخلف يوافق على أن يخوض مغامرة الذهاب لمؤتمره الانتخابي أصلا.

المسائل هكذا وسعت وبهوقت يا سادة، وأصبح مطلوبا من أجل لَمِّها أن يتخلى النظام الشاكم عن جو التلقيح والتسريب؛ لأنه إذا كنا قادرين بعون الله على اختراق حصون أعتى أجهزة المخابرات في عقر دارها، فلماذا لا نعلن فورا قطع العلاقات مع هذه الدول التي تتآمر على مصير البلاد وتفكر في حرمان الشعب المصري من حكم السيسي له؛ لكي يفكر أي جرذ حقير متآمر ألف مرة قبل خوض قرار الترشح في الانتخابات المقبلة التي لا أظن أنه سيكون هناك مبرر لإجرائها من أصله، وإذا كانت ظروف البرد القارس ستمنعنا من خوض الحرب الشاملة مع هذه الدول التي كشفت مصادرنا السيادية مؤامرتها في الوقت المناسب، فإن ذلك لا يجب أن يمنعنا من الإعلان الفوري عن قطع العلاقات الدبلوماسية معها، وقطع أيدي كل من تمتد يده إليها لطلب معونة أو بعثة دراسية أو حتى فيزة سياحة مع تخصيص لجنة رفيعة من المصادر السيادية لدراسة الحالات الخاصة التي تذهب للعلاج والتجارة لكي لا تكون مجالا لتسرب الجواسيس والخونة.

أعلم أن الظروف السياسية قد تتطلب من مصادر سيادية أخرى أن تعلن عن نفي تسريبات المصادر السيادية التانية، لكن المهم أن الرسالة قد وصلت وبات على الشعب أن يقرأها ويحدد موقفه، هل سيقف إلى جوار حلف شمال الأطلنطي، أم إلى جوار حلف تفويض السيسي الذي يعمل بجد على إعادة المصريين إلى عصور الكرامة التي كانت الانتخابات فيها مجرد استفتاءات

لتأكيد الثقة في زعيم ملهم وحيد، وليس للاختيار بين أصحاب برامج وأفكار ومشروعات، وللأسف فإن ما يعرقل سرعة إعادتنا إلى الماضي المجيد هو التساهل مع الخونة والعملاء الذين يدعون أنه تم سرقة إرادة الشعب في ٣٠ يونيو الذي خرج ليطالب بانتخابات رئاسية مبكرة، فإذا بالمسألة تصفصف على تحقيق أحلام رئاسية متأخرة.

دعنا من الهزل في موضع العبث، ودعني أقل لك إن كل من أعرفهم من المواطنين لم يعد يرهقهم شيء هذه الأيام بقدر ما يرهقهم ويقرفهم ويزعجهم مناخ الغموض وحالة اللوع وشغل التلات تسريبات؛ لأن رغبتهم في أن يرسوا على بر جعلتهم مستعدين لاختيار أي «وضع» يؤدي إلى انقطاع الفرهدة ولو لبعض الوقت؛ حتى يتمكنوا من استعادة إحساسهم بالكون المحيط بهم، ولذلك بدلا من أن تواصل البلاد نزيف خسائرها الاقتصادية، وبدلا من أن يواصل الضباط والمجندون دفع ثمن الصراع على السلطة في العمليات الإرهابية المتلاحقة، وبدلا من أن نستنزف الوقت والصحة والمرارة وما شابهها في مناقشات عبثية من نوعية «طب إنت شايف مين على الساحة؟ يعني إنت شايف حد غيره.. طب هنعمل إيه طاه؟»، لماذا لا نتخذ من كوريا الشمالية نموذجا لنا في الحسم والإنجاز، خاصة أن شعبها الصديق لديه سابق تجربة مع التفويض؛ ولذلك يمكن لنا أن نستفيد من تجربته، فبدلا من أن نخصص أماكن للتظاهر، علينا أن نخصص ساحات لإعدام كل من يعترض على خارطة الأحلام أو يطلب تفسيرها أو يمارس التنبيط عليها، على أن نترك لمن سيتم إعدامهم حق اختيار طريقة الإعدام المفضلة؛ شريطة

ألا تخالف أحكام الشريعة الإسلامية، طبقا لتفسيرات المحكمة الدستورية العليا وتبريكات حزب النور.

لا أظن أن أحدا يمكن أن يتفلحس ساعتها، فيحذرنا من ردود أفعال المجتمع الدولي، خاصة بعد أن اتضح أن دوله الكبرى تقوم بالتآمر ضدنا «عيانا بيانا»؛ لذلك طالما العملية خسرانة خسرانة، علينا أن نجيب من الآخر ونعفق البلاد بما يحقق مصلحتها، حتى لو حكمت أن نخوض حربا شاملة مع تلك الدول المتآمرة، فنحن والحمد لله لا نشكو أبدا من احتياطي الأغاني الوطنية اللازمة لرفع مستويات الأدرينالين الوطني إلى أقصى مستوياتها، ويمكن لنا في حالة حدوث أي عجز أن نستعين بالمخزون التراثي المتراكم في أرشيف الإذاعة التي طالما انتصرنا داخل مبناها على أعدائنا بفضل زعمائنا الملهمين الذين يعرفون مصلحة الشعب أكثر منه.

لا أعتقد أيضا أننا يمكن أن نعدم مباركة المثقفين الذين سيواجهون أي تذمر على هذه الإجراءات بالاستشهادات المنهجية بنماذج تاريخية ومعاصرة لدول أدركت أن بتر أورام المعارضة فيها أمر حتمي من أجل الشفاء والبناء، وإذا كانت الدماء التي سقطت حتى الآن ليست كافية لبناء الدولة العصرية المتقدمة الحديثة، فليس عيبا على الإطلاق أن نواصل سفك المزيد من الدماء من أجل بقاء جميع اللواءات والمسئولين ورؤساء الأحزاب والمذيعين ورؤساء التحرير والخبراء الإستراتيجيين والفقهاء الدستوريين على كراسيهم، خاصة وقد أتيحت لنا الفرصة التي لم تتح لمحمد مرسي في أن ينفذ تهديده الشهير «وفيها إيه لما نضحي بشوية ناس عشان باقي الشعب يعيش؟».

يا سادة: هاتوا من الآخر، وخلوا الشعب يعيش، «وإنشالله يخربها مداين عبد الجبار».

٢٠١٣

(للعلم وللتاريخ بعد نشر هذا المقال وصلتني رسالة قصيرة من المواطن المصري عمرو رزق عضو هيئة التدريس بجامعة هانوفر بألمانيا يقول فيها بالنص: «أنا مصري مقيم بألمانيا من ٢١ سنة، درست وأقمت لمدة ٨ سنين في دارمشتات، وأحب أؤكد لك أن القاعدة الأمريكية في دارمشتات مغلقة من سنين ومجلس المدينة قرر استخدامها لحل أزمة السكن في المدينة».. لذا لزم التنويه، ولا حول ولا قوة إلا بالله).

اللهم لا افتراض!

تعالوا نفترض مجرد افتراض أن سائحا أجنبيًا زار مصر هذه الأيام دون أن تكون لديه فكرة مسبقة عن واقعها السياسي طيلة ربع القرن الماضي، وأتيح له الاطلاع على صحفها القومية ومشاهدة إعلامها الرسمي من إذاعة وتلفزيون، ثم نسأل أنفسنا عن الصورة التي سيكونها هذا السائح عن واقع مصر.

بالتأكيد سيظن هذا السائح أن الرئيس مبارك بدأ حكم مصر منذ عدة أشهر وأنه ورث عن سلفه ميراثا مثقلا بالظلم والهموم والسلبيات والفساد، يعني بدليل ما قاله الدكتور أحمد نظيف رئيس وزرائنا لمجدي الجلاد رئيس تحرير (المصري اليوم) عن أن تفسير كل ما يحدث في مصر الآن هو أن مصر تشهد حرية سياسية لم تكن متوفرة قبل ذلك، بالطبع سينبهر السائح بأن مصر الحمد لله باتت تشهد مثل هذه الحرية لكنه سيسأل عن اسم الحاكم الذي كان يحكم مصر منذ عامين والذي لم يتح للشعب المصري تلك الحرية التي يتباهى بها الدكتور نظيف هذه الأيام، تفتكروا كيف سنجيب هذا السائح؟ ملعون أبو السائح كيف سنجيب أنفسنا عندما تسألنا عما كنا نسمعه كل يوم على مدى ربع القرن الماضي بأننا نعيش أزهى عصور الحريات؟ ثم

ها هو الأمر ينكشف بناء على تصريح رسمي من رئيس وزراء مصر ويتضح أن ما كنا نسمعه لم يكن سوى كذب صراح، فالحرية السياسية الحقيقية اللي هي أزهزه واحدة بين الحريات لسه يا دوبك مبتدية، طبقا لتصريح الدكتور نظيف، من نحاسب إذن على العمر الذي ضاع في الأوهام والتصريحات؟ ومن سيدفع لنا فرق الحرية الذي كنا نظن أننا نتمتع به كل هذا العمر الذي عدى؟ وهل من حقنا أن نسأل مجرد سؤال عن الخطة التي سنلعب بها هذه المرة والتي تبشرنا الصحف القومية بأنها ستجلب لنا الخير والرخاء والهناء، خاصة أننا نلعب بنفس الكابتن، فأين كان العيب إذن في الخطط السابقة؟

بالطبع لا أطمع أن أجد إجابة عن هذه الاسئلة لا أنا ولا السائح الذي أعتقد أنه لو ألح كثيرا في سؤاله عن اسم الحاكم الذي سبق الرئيس مبارك في الحكم فستتاح له الفرصة في أن يذوق بعضا من رحيق عصر الحرية الزاهية اللي يا دوبك لسه بادي. أما إذا لم يكن غتيتا وقرر ألا يدق كثيرا في أسئلته وواصل قراءة صحفنا القومية فإنه سيحسدنا لا محالة على هذا الخير الذي انهمر فجأة علينا من كل حدب وصوب، مصانع لا حصر لها ولا عد، وملايين الأمتار من الأراضي يعلن عن استثمارها من قِبلِ مستثمرين جدد، ومشاريع خدمية ستنهال زي الرز على أم رأس ورأس أم كل مواطن مصري، ولا شك أن هذا السائح سيربط بين كل هذا الخير الوفير وبين مجيء حاكم جديد إلى مصر، وسيعتقد أن الحاكم الذي كان يحكمنا في السنوات الماضية كان سبب تأخر التنمية في بلادنا وتعثر خطط الاستثمار وثقب عجلة التنمية، ولا شك أنه سيتوجه لنا ولرئيسنا الجديد بأصدق التهاني وأحر الأماني.

لو قرأ هذا السائح صحفنا الحكومية وشاهد برامجنا الحوارية

لأدرك أن ثمة عقبة كئودا تقف في طريق تقدمنا وازدهارنا، اسمها جماعة الإخوان المسلمين المحظورة، ولاعتقد من فرط ما يقرؤه عن هذه الجماعة أنه لاصلاح لنا إلا بالخلاص منها قيادات وأعضاء وفكرا ومنهجا، ولربما اقترح علينا الرجل أن نعمد إلى التخلص من جميع من ينتسب إليها في محرقة جماعية أو نلقيهم من جديد في غياهب السجون؛ لكي نتخفف من أثقالنا ونستمتع بثمار إصلاحات رئيسنا الجديد الذي لو خلّى الإخوان بينه وبين الشعب لصار الراكب يسير من طنطا إلى ديروط لا يخاف إلاالله والذئب على غنمه.

لو قرأ هذا السائح صحفنا الحكومية لأدرك أنه يعيش بين ظهرانينا جماعة لا يتجاوز عددهم المائتي النفر تحجرت قلوبهم وماتت ضمائرهم؛ يخرجون إلى الشوارع بهدف تعطيل المرور وإرباك حركة السير والاستثمار، ويتسببون بهتافاتهم البذيئة في انهيار البورصة وتدهور التعليم وتلوث المياه وانتشار السرطان والفشل الكلوي، بل ويصل بهم الفجور إلى درجة أنهم يضربون عصي قوات الأمن بأجسامهم وأقدام قوات الأمن ببطونهم ويقحمون أجسام نسائهم الحساسة في أيدي رجال الأمن، ثم يبلغ بهم الفجور أيما مبلغ فيتعرون في أقسام البوليس ويوصلون أطرافهم بالكهرباء ومؤخراتهم بالأوراق والعصي، ثم يأخذون في الصراخ مستجيرين بمنظمات حقوق الإنسان ومستنجدين بالصحافة الأجنبية، دون أن يراعوا أننا مجتمع شرقي لا يصح فيه أن يقرأ الأطفال تفاصيل الانتهاكات والتحرشات عيانا بيانا؛ لأن في ذلك خدشا مبينا لحياء المجتمع الذي بات حياؤه يوجعه من كثرة ما ارتكبه هؤلاء المعرقلون لمسيرة التنمية التي تسير مثل وابور عبد الوهاب دون أن يعرف أحد هي «رايحة على فين».

لو قرأ هذا السائح صحفنا الحكومية لشك في قوانا العقلية؛ لأننا نمتلك ثروة قومية ممثلة في ابن رئيس بلادنا الذي لو ذهب إلى دولة متحضرة لخطفته منا خطفا، ولأسلمته قيادها طائعة مختارة لكي يفيء عليها بأفكاره العبقرية التي يمكن أن تغير وجه مصر بدون عمليات جراحية وباستخدام المنظار، لكننا لا نتركه يعمل في صمت كما يوصينا والده ـ طبقا لما صرح به للسيد إبراهيم سعدة في مقال أخير له ـ فأخذنا نغلوش عليه حتى فقد تركيزه ولم يعد قادرا على أن يعمل لرفعة البلاد وسيادتها، ولا شك أن ذلك السائح سيصرخ فينا كالأسد الهصور بألا نجني على أنفسنا فنحرمها من خير ذلك الشاب المكافح الذي قلما يجود الزمان بمثله.

لو قرأ هذا السائح صحفنا القومية وشاهد نشرات أخبارنا من الواحدة ظهرا وحتى الواحدة صباحا لحسدنا على حكمة رئيسنا التي يقف العالم كله منصتا إليها، وعلى نهر الخير الذي يتدفق في بلادنا ولا نهر الذكريات، وعلى التفافنا بكل حب حول مسئولينا وحكامنا دون أن نسلم آذاننا للمغرضين من أهل المعارضة الذين أسلموا قيادهم للشيطان، ولطلب فورا أن يحصل على الجنسية المصرية لكي يشاركنا في هذا النعيم الوفير، لكن المشكلة أنه وهو متوجه ليطلب الحصول عليها سيضطر للمشي في مناكب بلادنا وسيشاهد شعبها المرهق من عناء التنمية، وسيستمع إلى شكواه من التهابات الإصلاح التدريجي، وعندها لن يسأل ذلك السائح سوى سؤال واحد لسائق التاكسي الذي يركبه: «تاخد كام وتوديني المطار؟».

٢٠٠٦

«كان عندك إيدز وراح»!

سواء حصل اللواء ابراهيم عبد العاطي صائد الفيروسات على جائزة نوبل في الطب عن اكتشافه مع فريق من القوات المسلحة علاجا يقضي على فيروسات الإيدز والتهاب الكبد الوبائي وإنفلونزا الخنازير، أو انضم اكتشافه إلى قائمة الضلالات الطبية المبينة التي تجلب الشنار لمن روّجها بين المتعلقين بآمال الشفاء، فالمؤكد أن علاقتنا بالكفتة لن تعود كما كانت أبدا، ليس فقط لأننا سنتذكر الإيدز كلما اشتهيناها؛ بل لأن الكفتة ـ كما الكوسة والبطيخ من قبلها ـ ستصبح سمة عصر ومنهج حياة.

في مشهد سيقف التاريخ فوقه طويلا، يقف الرجل الأسمر النحيل «الكُبّارة» أمام صف من القادة العسكريين قائلا بشموخ تحسده عليه الجبال الرواسي: « ثقوا أننا هزمنا الإيدز ولم ولن نستورد في يوم من الأيام مصلا لعلاج يكلف مصر أحد أبنائها إيفن ون بنس، الإيدز يتفتت ويصبح زي ما بقول في الأمثلة: باخد الإيدز من المريض باديهوله صباع كفتة يتغذى عليه، باخد المرض واديهوله غذاء وهذا قمة الإعجاز العلمي، أشكر السيد المشير الذي اهتم بالبحث، وكان كرباجا؛ لأنه قال مقولات بترن في أذني لحد دلوقتي: إحنا في الديل

ومش عايزين نفضل في الديل، إحنا عايزين نقفز وهذه هي القفزة الأولى إن شاء الله». سمعت ما قاله الرجل لأول مرة فبكيت من فرط الضحك حين أدركت أنه لم يعد لي مستقبل في كتابة الكوميديا: «هاعلّي على الدماغ دي إزاي؟»، لكنني عندما شاهدت المؤتمر الصحفي الكامل الذي عقدته القوات المسلحة لإعلان اكتشافها الطبي، بكيت من القهر بعد اصطدامي بحقيقة مخيفة: «الناس دي مصدقة نفسها جدًا يا معلم».

عندما يُعلن اكتشاف لعلاج التهاب الكبد الوبائي على شعب هو الأكثر معاناة في العالم من هذا المرض اللعين، كان ينبغي أن يخرج الملايين من أبنائه إلى الشوارع شاكرين مهللين مبتهجين، فلماذا إذن توقف الكثيرون عند موضوع الكفتة دون سواه؟ ولماذا لم يظهر حتى على كثير من هواة التفويض المجاني أنهم يثقون تماما في الاكتشاف العجيب؟ ولماذا خاصموا عاداتهم بالقعدة على الساقطة واللاقطة، كما كانوا يفعلون أيام سيئ الذكر مرسي، واكتشفوا فجأة خطأ السخرية في بلاد تحترق وأهمية «التوقف والتبين» وضرورة التثبت والتمحيص؟ الإجابة ببساطة: لأن «الدخلة كانت غلط بأكثر مما يمكن احتماله». قطعا كان سيختلف استقبال المصريين على اختلاف توجهاتهم لنبأ كهذا، لو كان قد تم إعلانه من خلال نخبة من كبار العلماء المصريين في الداخل والخارج، يعلنون للشعب تأكدهم من معايير البحث العلمي التي حكمت مراحل الاكتشاف الطبي (تخيل مثلا لو كان العالم المصري محمد غنيم بجلالة قدره هو الذي تحدث للشعب عن الاكتشاف، بدلا من مجموعة مسئولين لا تأمنهم على علاج إصبعك «المدوحس»).

لذلك عندما تقوم كسلطة حاكمة بتقديم «العلاج المعجزة» في سياق حملات التطبيل المحمومة التي تتواصل لإيصال المشير السيسي إلى مقعد الرئيس الضرورة، وعندما يتحدث مكتشف العلاج عن خطف المخابرات الحربية له لتنقذه من جهات أجنبية عرضت عليه «اتنين مليار دولار وتنسى الجهاز»، فليس عليك بعدها أن تغضب من الذين تركوا «فيروس سي» ومسكوا في «صُباع الكفتة»، وليس عليك أن تلوم الذين يحمِّلون السيسي مسئولية ما سيجري من تداعيات تتوالى يوما بعد يوم؛ لأن المسألة منذ البداية تم تصويرها كمنجز جرى تحت رعاية تعليماته بأن «نقفز من الذيل»، لكن لأنك لم تقم كعادة كل حكام البلاد بعمل «الصح» فقد جاءت قفزتك واسعة، ولكن إلى ما هو أبعد من الذيل بكثير.

منذ عهد المتنبي وما قبله، ومصر تبهر العالم بمضحكاتها المبكيات، لكن «النكتة دي جديدة» ومتفردة في حزنها ومرارتها وعبثها، الذي لم يكن ينقصه إلا أن يدعو المشير السيسي لمؤتمر صحفي عالمي يحضره نخبة من علماء العالم، ليقوم هو وعدلي منصور وكل قادة الدولة بحقن أنفسهم بالفيروسات التي يؤكد الاكتشاف علاجها، ثم يتم علاجهم بالجهاز العجيب على الهواء مباشرة؛ لكي يخسأ الخاسئون، ويدركوا أن في مصر رجالا لا يسمحون بالإساءة إلى سمعة القوات المسلحة، لكن ستصبح لدينا عندها مشكلة جديدة هي أن الملايين ستخرج إلى الميادين مطالبة بتفويض اللواء إبراهيم عبد العاطي كرئيس للجمهورية؛ بوصفه صاحب أهم اختراع طبي في التاريخ الحديث، وربما تعرض الرجل لمحاولة اغتيال بإصبع كفتة مسمومة؛ لإحباط المؤامرة الغربية التي ستمنع السيسي من تولي سدّة الحكم وسدّها من بعده.

لم يدع الواقع العبثي مجالا للمزيد من العبث، ولذلك دعوني أشهد الله وأشهدكم أنني أتمنى مخلصا صحة اكتشاف القوات المسلحة، فلأن يشفي الله مريضا واحدا خير لي من حُمُر النَّعَم، ولذلك أحاول أن أضع نفسي مكان كل حالم بالشفاء، فألوم كل من يملك يقينا مطلقا بخطأ الاكتشاف وخطله، لكنني أيضا ألوم كل من يملك يقينا مطلقا في إعجازه وإنجازه؛ لأن المعرفة العلمية قائمة بطبعها على الشك لا اليقين، وهو ما لم يدركه الجهابذة الذين ربطوا تجربة علمية لا زالت في طور الشك والتجريب بالقوات المسلحة التي يفترض أن تقوم علاقتها بالشعب على الثقة المطلقة، وربما تصرف هؤلاء بهذه الرعونة لأنهم يعلمون أنه حتى لو ثبت أنه ليس للاكتشاف أي قيمة علمية، أو ثبت أن أثره أضأل بكثير مما تم الإعلان عنه، فإنه لن تتم محاسبة أحد على تلك الخطيئة، فلا مجال لحق المحاسبة في بلد لم يعد يمتلك المواطن فيه سوى حقوق التصفيق والتهليل وتفويض الأمر لأولي الأمر في الأجهزة السيادية الشامخة الذين هم أحن عليه من نفسه، وأعلم بمصلحته منه، ونافعوه أكثر من الذين خلفوه.

لذلك، «المسألة المصرية» الآن أعقد من جهاز الكفتة أو كفتة الجهاز، المسألة أن جوهر السياسة في مصر يلخصه مشهد ظهر بالفيلم الترويجي للاكتشاف المعجزة، يقول فيه اللواء عبد العاطي بشموخه المعتاد لمريض يرقد منكسرا على السرير: «إنت كان عندك إيدز وراح»، فيجيب المريض الذي كاد أن يؤدي التمام: «الحمد لله يا فندم»، وهو بالضبط ذات الأداء الذي تنتظره سلطة الجنرالات من

كل مواطن صالح حين تقول له: «إنت كان عندك إخوان وخفّيت.. إنت كان عندك بلاوي وراح.. إنت كان عندك ديمقراطية إنت مش قدها.. إنت كان عندك أمل انساه عشان جبنالك أمل على مقاسك»، فلا يملك المواطن حق الاعتراض أو التحفظ أو الشك، ولا يبقى بمقدوره إلا أن يقول مستسلما: «تسلم الأيادي يا فندم».

٢٠١٤

إنها «سلمية»!

سبحان الله، يا ترى يا هلترى، هل هي صدفة بحتة أن تشهد أسواق إندونيسيا طرح أول ألبوم غنائي للرئيس الإندونيسي، في نفس اليوم الذي تبدأ فيه في مصر فعاليات المؤتمر العام للحزب الوطني العاكم؟ فعلا، للحكام في غنائهم مذاهب، بعض الحكام يفضل أن يغني لشعبه في شرائط كاسيت، وبعضهم يفضل أن يغني على شعبه «لايف».

لا تفهموني خطأ، لست ناقدا موسيقيّا لأتحدث عن الغناء، لا وقت لدينا الآن لهذا الهذر، فقد دخلنا بعون الله وببركات الرئيس مبارك عصر الطاقة النووية السلمية وعهد الله؛ لكي لا يفهمنا أحد خطأ، وإذا ظن مغرض أني أنوي السخرية فيما يخص النووي وطاقته، فقد خسئ وخاب سعيه فأنا مبتهج حتى الثمالة، فهل يمكن ياناس ياهوه لإنسان عاقل يحب بلده ويخلو من الطحالب والضديات والسواد، ألا يكون مبتهجا بما أعلنه الرئيس مبارك قبل أيام عن إنشاء محطات للطاقة النووية للاستخدامات السلمية وعهد الله؟

كان بودي أن أجيبكم بلا طبعا، لكن للأسف اتضح بالدليل

القاطع أنه نعم يمكن ألا يبتهج الإنسان العاقل الطيب ابن الأصول بقرار تاريخي مثل هذا إذا قمت بتعريضه لما تعرضنا له من إشعاعات وإظلامات النفاق الذري غير المخصب التي انهمرت علينا من كافة وسائل الإعلام الرسمية المقروءة والمسموعة والمرئية، فعكننت فرحة المصريين بقرار طال انتظاره وتأخر إصداره.

لو دخل علينا من لا يعرف سلو بلادنا ورآنا ونحن غارقون إلى الأذقان في هذه الزفة البلدي المبتذلة لما صدق أن كل ما نحن هائصون من أجله هو أننا سنستخدم الطاقة النووية في بناء محطات كهربائية سلمية وعهد الله، يعني كبيرها تساعد على كفاءة تشغيل الغسالات ومواتير المياه لتخفيف الضغط على المواسير يوم الجمعة، وهي مهام نبيلة لا يمكن للكاتب الحر أن يقلل من شأنها أبدا، لكنكم لو ترجمتم لهذا الغريب المستغرب مقالات الصحف القومية الهائصة بما حدث، لتخيل أننا انتهينا للتو من أول قنبلة ذرية تساعدنا على فرض توازن الرعب المطلوب على المنطقة، أو أننا قمنا بالتوصل إلى استخدام جديد وغير مسبوق للماء الثقيل في مساعدتنا على الخروج من خيبتنا الثقيلة. بينما كل الحكاية أننا أخيرا قررنا أن نفعل ما فعلته كل شعوب الأرض العاقلة من زمان، واكتشفنا أخيرا أننا لا بد أن نبحث عن بدائل للطاقة التقليدية، وهو أمر لا نكون صادقين ومخلصين لو لم نقم بمباركته للرئيس مبارك، دون حتى أن نفسد تلك المباركة بأسئلة رزلة عن سر تأخر هذا القرار كل هذه السنين أو عن ارتباطه بمشروع تخصيب التوريث، في كل الأحوال هو مشروع وطني يجب أن نحييه ونباركه، لكننا في نفس الوقت يجب أن ندعو لاحترام عقلية الناس خصوصا البسطاء منهم فنصارحهم بحجم ما

نووي فعله من غير تهييص ولا تهجيص، فلا نصور لهم أننا جبنا التايهة التي تاهت عن دول العالم ولقيناها نحن، ولا نستخدم هذا القرار النبيل لمكاسب سياسية رخيصة تصور للناس زورا وبهتانا أننا نقوم بعمل يجعل أمريكا وإسرائيل يتميزان غيظا وترتعد فرائصهما رعبا، ولم يعد ينقصنا إلا أن نقول للبسطاء إن ما أصاب أولمرت من سرطان في البروستات، ما أصابه إلا بعد سماعه قرار أننا سنقوم بعمل محطة نووية للطاقة الكهربائية السلمية وعهد الله.

الناس لا تأكل من الأونطة إن كنتم لا تعلمون، وإن أخذت لقمتين أونطة تأخذها بمزاجها؛ اتقاء للعين الحمراء وبحكم العشرة الطويلة مع الأونطة، ولذلك الناس لن تخيل عليهم محاولة غسيل تاريخ الحزب الوطني المبقع ببقع لم تُزِلها مادة «اللاييبز» ولن تزيلها الطاقة النووية السلمية وعهد الله، واعتبِروا يا أولي الألباب بما حدث في العام الماضي عندما لم يخل الفيلم النووي على سائر النُظّارة، تذكرون طبعا عندما امتطى السيد جمال مبارك خصّب الله خطاه صهوة مؤتمر الحزب الوطني وامتشق الميكروفون ليلقي خطبة عصماء أعلن فيها أن مصر ستدخل عصر الطاقة النووية، وأن الحزب الوطني يرفض مشروع الشرق الأوسط الكبير، حتى ظننا أنه يلقي خطابه من الضاحية الجنوبية لبيروت لا من مدينة نصر، حكيت لكم يومها أن صديقا لي ظن يومها أنه يشاهد خطابا لأحمدي نجاد، لكن المخرج الذي نقل المباراة قطع أكثر من مرة على صور لصفوت الشريف يستمع إلى الخطاب باهتمام جعل صديقنا يتأكد أنه لا يشاهد مولانا آية الله صفوت لاريجاني، وعندما استمع صديقي بعدها مباشرة إلى كلمة السلمية تتكرر في خطاب جمال مبارك تأكد

أنه أكيد في مصر، وأن كل ما لخبط صديقي ولخبطنا جميعا للحظات هو ما أعلنه جمال مبارك في خطابه عن رفض حزبه القاطع لمشروع الشرق الأوسط الكبير، تساءلنا يومها: هل يعلن السيد جمال رفضه له في قاعة المؤتمرات فقط، أم أنه يرفضه أيضا في قاعات البيت الأبيض المغلقة التي زارها خلسة كما يزور العاشق الولهان مضارب من يهوى؟ يومها توقعت ساخرا أن يقوم الحزب الوطني بطباعة تصريحات وأحاديث وخطب السيد جمال مبارك النارية في كتاب يطلق عليه «الأربعون خطابا النووية للمجاهد جمال مبارك»، لعل الشعب المصري يقتنع أن الحزب الوطني المبارك «نووي» على شيء غير التوريث.

لم يصدر الكتاب طبعا لكن شكوك النافخين في الزبادي أمثالي في كون المشروع النووي فيلما ليس إلا، تضاعفت عندما انصرم العام سريعا دون أن نتقدم خطوة نووية واحدة، بل تأخرنا إلى الوراء خطوات بعد خلافات مضحكة مبكية بين هيئات الدولة حول الموقع الملائم لإقامة المحطة النووية، وما إذا كانت تلك المحطة ستخرم عجلة الاستثمار السياحي أم ستدفعها، وتحوّل الحلم النووي النبيل في بعض شهور السنة إلى مسخرة كغيره من الأحلام النبيلة التي ابتذلها محدودو الموهبة الذين ابتليت بهم هذه البلاد المسكينة، حتى ظننا أن حظنا من الطاقة النووية لن يكون إلا على الأيدي الناعمة للفنانتين نهال عنبر ونادية الجندي اللتين لعبتا دور خبيرات طاقة نووية في مسلسلات رمضان الأخيرة.

كل هذه الشكوك صارت في ذمة التاريخ الذي هو ذات نفسه في ذمة الله، فقد أعلن رئيسنا المبارك دخولنا عصر الطاقة النووية

السلمية وعهد الله، وصار واجبا أن نلتف كلنا حول هذا المشروع العظيم بجدية، ستسألني: وهنجيب الجدية منين؟ أقول لك: لا يا معلم، في هذا الموضوع بالذات تلزمنا الجدية، فالمحطة النووية حتى وإن كتب عليها بالبنط العريض شعار «إنها سلمية.. سلمية»، فهي ليست كوبري لا بد أن ننجزه «في السريع البَنّي» لكي يفتتحه الريس بالكتير على شهر أكتوبر، فيما يخص النووي يلزمنا أن ننسى ما تعودنا عليه من شغل المهيصة والألابندة والموالد والزفات وقرب يا جدع وسع للنووي يا باشا، خش يا ريس على النووي وخد صورة مع المفاعل يا جمال بيه، وإلا فسينتهي بنا الأمر لاقدر الله وقد ارتكبنا أخطاء فادحة من بتوع السكة الحديد تحوِّل الحلم النووي إلى كابوس مفوزع يعاني منه العالم أجمع، لينسب لنا حينها أننا كما كنا أول نور في الدنيا شق ظلام الليل، فسنكون ـ في حالة الطلسقة النووية التي نحذر منها ـ آخر نور في الدنيا أعاد ترميم ما شقه من ظلام الليل.

٢٠٠٧

يخرب بيت الثورة يا شيخ

بصراحة، علينا أن نعذر الناس الذين يشعرون بأن الثورة خربت البلاد، أعرف أن مجرد ذكر ذلك سيضايق كل من اشترك في هذه الثورة وآمن بها، لكن لماذا نكتفي بالضيق؟ لماذا لا نجرب ولو مرة أن نستمع إلى تلك الشكاوى وندرسها لعلنا نعرف كيف نتعامل مع أصحابها؟ قررت أن أبدأ بنفسي فأطالع بتمعن صفحات الحوادث وما ينشر بها من جرائم مفزعة غريبة على المجتمع المصري؛ لأكتشف كيف أصبحنا نعيش بسبب الثورة في غابة حقيقية تندلع فيها الجرائم لأهون سبب؛ غابة لا مكان فيها لعلاقات القرابة والصداقة ولا هيبة فيها للدولة ومنشآتها ولا صوت يعلو فوق صوت السلاح الناري، فتفهمت لماذا يحن الناس إلى أيام الأمن والأمان التي سبقت الثورة، وشعرت بالندم لأنني شاركت في هذه الثورة التي خربت البلاد وأفسدت أخلاق العباد.

سأكتفي باستعراض عناوين بعض من هذه الجرائم التي تسببت فيها الثورة، تاركا لك التعليق في النهاية:

«طالب عمره ١٧ سنة يفشل في اغتصاب فتاة فيذبحها ويسرقها

ـ أب وولداه يقتلان حدادا أمام أسرته في المحلة ـ أشعلت النار في حماها بعد أن راودها عن نفسها ـ موظف الري يسرق حكما قضائيًا ويطلب مقابلا له ألف جنيه وقاروصة سجاير ـ سرقة المحولات الكهربائية على عينك يا تاجر في محافظة المنوفية ـ ترويج البانجو في نادي المعلمين بالمنوفية ـ ابن يقتل والده بالإسكندرية لإهانته أمه أمام عينيه ـ ميكانيكي يقتل صديقه الأستورجي بسبب ٤٥٠ جنيها بمدينة نصر ـ فتاة تحمل من والدها سفاحا بالإسماعيلية ـ الأهالي أسقطوا لص عين شمس وقادوه للقسم ـ ضبط تركيبات دوائية فاسدة بصيدليات طنطا ـ بائع خضراوات يهتك عرض طفل عمره ٤ سنوات ـ سائق توك توك يغتصب طفلا ثم يهشم رأسه ـ سائق يعتدي على طفل شوارع ويغرقه ـ شاب يقتل شخصا سب والدته ويلقي بجثته في المسجد ـ إحالة جثة طفلة أنجبها أخ من أخته سفاحا إلى الطب الشرعي ـ أهالي الهجانة يغلقون الأوتوستراد احتجاجا على مصرع شخص وزوجته ـ اختلفا على سعر تي شيرت فذبحه في سوق إمبابة ـ إخلاء سبيل المتهم بمعاشرة شقيقته، ونظر قضية قاتل والدته لشكه في سلوكها ـ مدير ملهى يعرض للزبابن سيديهات مخلة لزوجته ـ ٨ ملثمين يقتلون صاحب كافتيريا بالمحلة ـ إصابة ١٢ في مشاجرة بالأعيرة النارية بالبحيرة، وإصابة اثنين في مشاجرة بين عائلتين بالأسلحة النارية بملوي ـ ضبط مخزن للأسلحة النارية بكوم امبو ـ جريمة بشعة في البساتين: يقتلان صديقهما بسبب جاكيت ـ عجوز البساتين يعتدي جنسيًا على حفيدته ـ تأجيل قضية قاتل والدته لسوء معاملته لها ـ تشكيل

عصابي مسلح بالبحيرة يستولي على أراضي أملاك الدولة ويفرض الإتاوات ـ نقاش يغتال براءة طفلة عمرها ٥ سنوات بكفر الشيخ ـ عقاقير مخدرة للبيع أمام محكمة شمال الجيزة ـ تخليص محاضر سرقة الكهرباء بخمسمائة جنيه ـ ٤ ذئاب يغتصبون سيدة بالسويس ـ صاحبة مخبز تحرق مكتب تموين بالغربية انتقاما من مديره ـ عتّال بالمنيا يغتصب طفلة ـ يعرض ابنته على أصدقائه لممارسة الرذيلة بالفلوس في حدائق القبة ـ مدرس بسوهاج يهتك عرض تلميذة بغرفة الكمبيوتر ـ قطاع الطرق يسرقون مرتبات عمال الأمن بأكتوبر ـ مستشار يطلق النار على جاره بالهرم ـ قهوجي بأرض اللواء يحقق رقما قياسيًا في قتل أفراد عائلته ـ معركة بالسلاح في العمرانية والسبب أجرة الحلاق ـ عاطل يغتصب ابنة شقيقته ويدفنها حية ـ إحالة مدرس ابتدائي للتحقيق بتهمة التحرش الجنسي مع فتيات الصف السادس الابتدائي ـ مصرع شخص وإصابة اثنين بطلق ناري بروض الفرج ـ والدان يجبران بناتهما على ممارسة الدعارة في شقة بالجيزة ـ موظفو صيانة يسرقون ٦٥ ألف جنيه من ماكينة الصرف الآلي ـ عاطل يقتل مزارعا بالرصاص في الخانكة ـ مجهول يعتدي على القضاة عاريا بأسوان ـ مدرس إعدادي يعتدي على طالبة بمدرسة صفية زغلول للبنات ـ يقتل ابنة عمه لشكه في سمعتها ـ عصابات بيع الأعضاء تخطف طفلا بالدقهلية ـ مجهولون يقتحمون محل موبايلات بالعريش ويشرعون في قتل صاحبه ـ يقتل مديره لعدم صرف الراتب الإضافي له ـ هتك عرض طفلة عمرها ٧ سنوات على يد أسرتها ـ تشكيل عصابي يسرق المواطنين

تحت تهديد السلاح بالغربية ـ طالب يستخدم بدلة أخيه الضابط للنصب على المواطنين ـ إصابة ستة أشخاص في مشاجرة بالأسلحة النارية في إمبابة بسبب القمامة ـ مزارع يقتل والده المسن لرفضه إتمام زواجه ـ عايره أبوه ببطالته فقام بقتله على الفور ـ علامات استفهام حول تكرار حوادث الاختطاف بالدقهلية ـ يقتل شقيقه الأكبر بسبب ٦٠ جنيها ـ وزير الطيران يتدخل لإنهاء مشاجرة بالأيدي والألفاظ النابية بين رئيس مجلس إدارة البنك الأهلي وموظف بجمارك بمطار القاهرة ـ ٧ شباب يحاولون اغتصاب فتاة بالقنطرة غرب ـ مجند وشقيقه يذبحان شابًا بالطريق العام ـ مدرب كاراتيه يتحرش بطفلة تتدرب لديه ـ ماسح أحذية يقتل زميله بسبب خلاف على مكان الجلوس ـ سائق ميكروباص وأصدقاؤه يخطفون راكبة ويعتدون عليها ويصورونها عارية ـ يقتل أمه بسيخ حديدي إرضاء لزوجته».

إذا كنت قد مللت واتخنقت وأصبت بالغثيان من كل هذه الجرائم البشعة، فدعني أقل لك إن كل هذه الحوادث وقعت خلال ٤٠ يوما فقط، وإذا كنت ستتهم الثورة بأنها السبب في كل هذا الخراب فدعني أنصحك باللجوء إلى أرشيف صفحة الحوادث والجرائم في موقع اليوم السابع الإخباري لتكتشف بنفسك أن كل هذه الجرائم وقعت في الفترة ما بين ٢٠ فبراير ٢٠٠٩ و٣١ مارس ٢٠٠٩، أي خلال شهر وعشرة أيام فقط من الفترة السعيدة العظيمة المباركة التي لم تكن قد وقعت في مصر فيها ثورة خربت أخلاق الناس وأحدثت الانفلات الأمني المريع الرهيب.

تأملوا فيما قرأتموه واتقوا الله في مصر وارفعوا ألسنتكم عن الثورة ولا ترموا بلاكم عليها، وتذكروا كيف كانت مصر ماضية إلى خراب شامل نزعت هذه الثورة فتيله إلى حين، وبدلا من اللطم والولولة والعويل، تعالوا ننشغل بتحقيق مطالب هذه الثورة كاملة لكي ننقذ مصر من الخراب؛ الخراب اللي بجد والعياذ بالله.

تحيا مصر، بس نديها فرصة.

سبتمبر ٢٠١١

إيه الحلاوة دي؟

دعنا من الحكايات والروايات وخلينا فيما رأيناه بحدقات أعيننا قبل أيام، دعني أقل لك من الآخر: الدولة التي يدخل حاكمها فيها على نواب شعبه الذين أقسموا على كتاب ربنا إنهم سيصونون مصالح الشعب ويدافعون عنه، ومع ذلك لا يجد الحاكم منهم إلا تصفيقا حادّا وامتثالا مطلقا أو في أحسن الأحوال صمتا مطبقا هي دولة يجب أن ترتعد فرائصك خوفا على مستقبلها، لن أحدثك عن ذلك النائب الذي هتف قائلا للرئيس: «إيه الحلاوة دي؟»، فهي جملة كاشفة لا تحتاج إلى تعليق أو تحليل؛ لأنها تلخص بعبقرية عصرا بأكمله تعيش فيه مصر في الحلاوة، فقط سأحدثك عن اليوم الفارق الذي وقف فيه نواب المعارضة من إخوان ووفد وتجمع ومستقلين وخلافه كأنهم خشب مسندة، صامتين لا ينبسون ببنت شفة دون أن يبدوا أي اعتراض من أي نوع وبأي شكل على ما يجري في البلاد وللعباد، ولعلك لاتحتاج مني إلى أن أذكرك بما يجري في البلاد وللعباد إلا إذا كنت أنت الآخر تعيش في «الحلاوة دي» عن طيب خاطر.

إذا لم تكن كذلك قل لي بالله عليك: ما الذي كان سيحدث لأي نائب من أي اتجاه سياسي لو وقف بكل أدب وتحضر وقال

لرئيس البلاد الحقيقة أو حتى طرفا من الحقيقة، لو ذكّره، والذكرى تنفع الرؤساء المؤمنين، بأنه سمع منه قبل ذلك كل ما قاله عن كون الفقراء ومحدودي الدخل في عقله وقلبه، لو قال له إنه سيقتدي به في عدم الخشية إلا من الله وسيقول له كل الذي يوجع الناس ويقرف عيشتهم، لو فعلها أحد من نواب الشعب فهل كان سيصدر قرار بإعدامه أو سحله أو سجنه؟ أنا واثق أن ذلك لم يكن ليحدث أبدا، طيب لماذا إذن كتم الجميع الشهادة في لحظة فارقة كالتي نعيشها؟ ارجع إلى حكاية من أثق وتأملها وستستنتج ببساطة أن سيستم الخوف يجعلك ترتعد خوفا وأنت تعتقد جازما أن الشجاعة لا تنقصك أبدا، يجعلك خائفا حتى لو لم يبادر أحد لإخافتك، وهو «سايب إيده» سيعمل «السيستم» على جعل نفسك الأمارة بالتبرير تقول لك إنه لم يكن يصح أبدا أن تقف لتخرق حاجز الصمت وتقول ما ينبغي أن يقال، ستحدثك عن الأعراف والأصول والكياسة والسياسة وأنت ستسمع وتعي ثم ستنقل للكل حديثها حرفيّا، والكل بدورهم سيقولون لأنفسهم: طيب إذا كان نواب الشعب قد صمتوا وعدوها فلماذا يلومنا اللائمون، ولماذا لا نصمت نحن ونعديها؛ على أمل إن ربنا يعديها؟ وهكذا يسود الصمت المطبق جنبات الوطن ولا يعلو صوت فوق صوت التصفيق للحلاوة دي.

عندما كنا صغارا علمونا أنه يتوجب ويتعين ولزما وحتما «ماتخافش إلا من اللي خلقك»، وعندما كبرنا علمونا أنه يتوجب ويتعين ولزما وحتما «تسايس أمورك وماتوديش نفسك في داهية»، والقلائل منا الذين رأوا أن هناك تناقضا بين المنطقين توجب وتعين ولزما وحتما عليهم أن يكملوا الحياة مع أنفسهم خالص حتى يأتي

عليهم يوم فيه يسقطون من الإعياء ويقتنعون أن هناك خيارين لا ثالث لهما في هذا الوطن؛ أن تصفق بحرارة أو تمتنع عن التصفيق، أن تصمت وتعديها أو تهتف بحياة الحلاوة دي.

تعس الصامتون والمصفقون، كلهم سواء، الهاتف بحياة الحلاوة والممتعض من سيرتها سيان، البلاد المنهكة لاتحتاج الاثنين، تحتاج إلى من يقول الحق، لكن الحق مر، لاعلاقة له بالحلاوة، الحق يريد أناسا يؤمنون بكلام قيل من زمان، «لا خير فيكم إن لم تقولوها، ولا خير فينا إن لم نسمعها»، كلام قلناه وسمعناه وما وعيناه ولا عملنا به وكلما جاءت فرصة لنعمل به أضعناها، فلا تسألوا إذن أين ذهب الخير طالما أن أحدا لم يقلها حيث ينبغي أن تقال، لا تلوموا من لم يسمعوها لأنكم لم تقولوها حيث ينبغي أن تقال.

تذكروا هذا اليوم جيدا؛ يوما غرق فيه نواب الشعب في تصفيق حاد تخلله صمت مكتوم في بعض الأرجاء، بينما البلاد كلها كانت تواصل الغرق في الحلاوة، غرقا عمره ربع قرن، دون أن يمد أحد لها يده؛ يوما لم يقف فيه أحد، حتى من الذين يدعون معرفة ربنا وتمثله في كل حركة وسكنة، أو أولئك الذين يموتون في دباديب الشعب ويتغنون دائما بقدرتهم على بذل الغالي والنفيس من أجله، كلهم دون استثناء يا صفقوا يا صمتوا، كلهم لم يمتلكوا شجاعة الوقوف ليقولوا كلمة تنفعهم يوم الحساب، كلمة يعلنون فيها من أجل هذا الشعب أننا لا بد أن نكتفي بهذا القدر من الحلاوة؛ لكي لا نموت بالسكري.

لك الله يا مصر. لم يعد لك غير الله.. ونعم بالله.

نوفمبر ٢٠٠٧

جو تو هيل!

فتحت التلفزيون لأعرف تداعيات ما يجري في مدينة المنصورة من أحداث لا تسر الخاطر المكسور، فوجدت «لاجل حظي العِفِش» على قناة الحياة ـ الحمرا ولا مؤاخذة ـ خبيرا إستراتيجيًا بدرجة لواء أركان حرب سابق يحرك رأسه بعصبية في كل الاتجاهات وهو يزعق قائلا: «إحنا مصر دولة قوية، كنا سلة الغلال لألف عام وهنهزم الإخوان زي ما هزمنا التتار وأحب أقول للدول الغربية: وي آر سترونج آند وي دونت في يو.. آند وي وورن يو وي آر ريدي فور ذيس.. آند وي كان ديفيت يو»، ثم قرر على حين غرّة التوقف عن الكلام بالإنجليزية ليضيف: «وأقول لبعض الشباب بطلوا مظاهرات فورا»، وللأسف انتهت «نِمرة» سيادته قبل أن أتصل بالبرنامج لأفهم منه، هل يعتقد حقًا أن الدول الغربية كلفت مندوبين بالفرجة عليه في برنامج قناة الحياة ولذلك قرر أن يترجم لها كلامه بالإنجليزية، مع أنه كان يمكن أن يتركها تتلظى من الحيرة وهي تحاول فهمه؛ حتى تفاجأ بمباغتتنا لها والانتصار عليها كما انتصرنا على التتار.

أقفلت التلفزيون وذهبت إلى الإنترنت بحثا عن أخبار تبل الريق فوجدت خبرا يقول إن محافظ الدقهلية خلال اتصال بأحد البرامج

زفّ بشرى سارة للمواطنين بأن عملية التفجير تم تصويرها كاملة من كاميرات مراقبة بنك مجاور للمديرية، لم أقرأ في الخبر: هل سأله مذيع البرنامج: ولماذا لا تمتلك مديرية الأمن كاميرات مراقبة مثلما يفترض بأي مؤسسة أمنية، كما بات يحدث حتى في البلاد الربع الكُمّ التي تؤمن كل المناطق الحيوية بشبكات مراقبة، كان يمكن تمويل تكلفتها باقتطاع نسبة من المليارات التي صرفت على مرتبات مدراء الأمن وأدوات التعذيب والتنصت وعربات مكافحة الشغب المصفحة التي لم تفعل شيئا سوى زيادة أسباب الشغب؟

تذكرت عندها موقفا حدث عندما سافرت إلى العاصمة الأمريكية واشنطن ومررت خلال تجوالي في شوارعها إلى جوار المبنى الرئيسي للـ«إف بي آي» أكبر الأجهزة الأمنية في العالم والذي يقع في قلب العاصمة الأمريكية، فاستغربت عدم إحاطة المكان بأي كمائن أو لجان أو نقاط تفتيش أو حتى حواجز حديدية قبيحة الشكل، قلت لصديقي المقيم في المدينة: «بالتأكيد هذا المبنى مهجور ومنظر على الفاضي وإلا لما تركوه هكذا دون حراسة»، فرد ساخرا: «ستكتشف أن المبنى ليس مهجورا وأنه محروس أكثر من اللازم إذا قمت مثلا برمي شنطتك باتجاه المبنى، لكن افعل ذلك عندما أبتعد عنك قليلا»، لم يكد يكمل كلامه حتى وقع ما أكد صحة كلامه دون أن أقوم برمي الشنطة، فقد تعطل أتوبيس نقل عام ووقف إلى جوار المبنى بعيدا عن محطته المعتادة التي تقع على بعد شارعين، وفي لمح البصر خرجت من داخل المبنى باتجاه الأتوبيس سيارة مصفحة حولها أكثر من ضابط بصحبة كلاب بوليسية، ليصرخ السائق في القادمين: «لديَّ مشكلة في المحرك».

الغريب أنه في تلك اللحظات العصيبة لم يقترب أحد منا نحن ولا من المارة الآخرين الذين كانوا يشكلون تمثيلا لعدد من شعوب الأرض، كما هو الحال في أي مدينة أمريكية كبيرة، وخلال لحظات خرجت من المبنى شاحنة قامت في لحظات بقطر الأتوبيس ودون ضجيج مصحوب بعبارات «عجلة ورا يا أسطى.. اكسر يمين شوية.. بتنيل إيه يخرب بيت أمك»، لتعود المنطقة المحيطة بالمكان إلى هدوئها الخادع الذي يسر الناظرين.

كل من سافر إلى أي مدينة من مدن الدول التي تحترم مواطنيها يدرك أن تلك الدول أدركت أن نشر الشعور بالأمن يرتبط بغياب مظاهر التواجد الأمني المكثفة التي تثير الفزع؛ لكي تكون موجودة فقط في الأيام التي توجد بها مثلا احتفالات عامة تزدحم فيها الشوارع، عندها يكون الوجود المكثف للشرطة أمرا مهمّا لقطع الطريق على من يفكر في استغلال الزحام في عمل يخل بالأمن.

وبالطبع عندما تقول كلاما كهذا سيظهر لك من يستسهل الحديث عن الفرق بين أخلاقياتنا وأخلاقيات الشعوب المتقدمة و«إحنا فين وهُمَّ فين، إنت هتقارنا بيهم»، والمؤكد أنك في الغالب خلال مناقشتك لهذا الشخص الذي يمثل مدرسة تفكير شائعة في بلادنا، ستكتشف أنه يحمل أفكارا عنصرية بحق الشعوب العربية والإفريقية والآسيوية، وأنه في نفس الوقت الذي يعتقد أننا محكومون بلعنة أزلية تجعلنا متخلفين، يحمل في نفس الدماغ أفكارا عنصرية تمجد في المصريين وتمنحهم تفوقا عرقيّا على كل شعوب الأرض.

للأسف فإن مثل هذه الضلالات الجماعية التي تغذيها وسائل الإعلام هي التي تجعلنا ننسى أن الشعوب المتقدمة لم تولد متقدمة، بل كانت تعاني من نفس أمراضنا ومشاكلنا، بل إن مشكلة انفلات الأمن مثلا ظلت موجودة في أهم العواصم العالمية وحتى وقت قريب بشكل مزعج لم نشهده في أي وقت من الأوقات، لكن مسئولي تلك العواصم مثل مسئولي دولهم يصلون إلى مقاعدهم بالانتخاب، ولا يبقيهم عليها رضا الأجهزة السيادية بل رضا رجل الشارع وحده، ولذلك فهم مجبرون خوفا من غضب المواطن على معالجة الأخطاء بشكل علمي، كان يمكن أن نستفيد منه لو كنا راغبين في إصلاح أوضاعنا الأمنية، لكننا نفضل أن نستورد من أمريكا أسلحة قمع المتظاهرين وأدوات التعذيب بدلا من أن نستفيد مثلا من تجربة عمدة نيويورك الشهير «رودلف جولياني» في القضاء على الجريمة المنظمة أو تأمين المناطق المزدحمة بشبكات مراقبة إلكترونية، أو نفكر في فعل أي شيء لرفع مستوى خيالات المآتة من الأمناء والجنود الغلابة الذين ينشرون شعورا كاذبا بالتواجد الأمني في الشارع لا نفكر في تصحيحه برغم كل كارثة و«اللي أنقح منها».

قادتني خطاي اللعينة أخيرا إلى موقع تواصل اجتماعي نشرت فيه صديقة إعلامية خبرا يقول: إن نادي أعضاء هيئة تدريس جامعة الأزهر اقترح تهجير أهالي سيناء الشرفاء لكي يستطيع الجيش ضرب الإرهاب، وهو اقتراح وجدته الصديقة جديرا بالتطبيق الفوري «عشان زهقنا بقى من خنقة الإرهاب»، فوجدت نفسي أصرخ:

«دونت دو إني ثينج تو ديفيت أس.. وي ويل فينيش آور سيلفز ويذ آور سيلفز.. سانكيو.. فك يو.. جو تو هيل»، ولكي لا تفهم قلبتي المفاجئة للإنجليزية خطأ، فأنا يا سيدي لا أخاطبك، بل كنت أقتدي بسيادة اللواء أركان حرب، وأخاطب الدول الغربية التي سنهزمها مثلما هزمنا التتار والإخوان.

٢٠١٣

هل سينزل جمال مبارك
إلى الرويعي ودرب البرابرة؟

لا أدري ماهو سر ردود الفعل العدوانية التي انتابت قطاعات واسعة من الشعب المصري بعد إعلان نبأ خطوبة السيد جمال مبارك إلى الآنسة خديجة الجمال، بارك الله لهما وبارك عليهما وجمع بينهما في خير.

كنت أظن أن الناس سيفرحون لأن خطوبة السيد جمال ستجعله يخفّ عنهم قليلا فينشغل بالخروجات والمكالمات التلفونية الطويلة وشراء الدباديب والأرانيب وزيارة بيت عمه، وما إلى ذلك من طقوس الخطوبة المعتادة لدى المصريين، كنت سأظن أن الناس ستبتهج لأن السيد جمال مبارك سيكمل نصف دينه بعد أن طلعت لجنة سياساته كل عين اللي خلفونا، كنت أظن أن الناس لديهم القدرة على التفريق بين الموقف السياسي الذي يجعلهم يُكِنّون للسيد جمال مبارك ـ مش مهم يُكِنّون إيه.. طالما كانوا يُكِنّون وخلاص ـ وبين الموقف الإنساني الذي يفرض عليهم أن يفعلوا معه وهو القريب

ما يفعلونه مع الغريب عندما يسمعون أنه نوى يتأهل ويخش دنيا، فيهتفون من قلوبهم: «ربنا يسعده ويتمم له بخير».

ليست لديَّ أي رغبة في الموالسة لاسمح الله، لكنني سعيد للغاية بخطوبة السيد جمال مبارك لأنها في رأيي ستتيح له فرصا أكبر للاقتراب من أبناء الشعب وفهم كيف يعيشون، لعله يفيق من الأوهام التي يزينها له خبراء لجنة السياسات وموالسو الصحف القومية بقيادة سيد اللحّاس القاطن في شارع القصر العيني، يمكن الآن لجمال مبارك أن يفهم لماذا شاخ الشباب المصري قبل الأوان، ولماذا لم يعد أحد قادرا على أن يكمل نص دينه، ولماذا أصبح الاغتصاب أسهل وأيسر بكثير من الزواج.

لا أريد أن أدخل في أي تفاصيل شخصية ولو حتى بدعوى أن السيد جمال مبارك فرض نفسه كشخصية عامة بمحض اختياره، وأصبح من حق الشعب أن يعرف كل شيء عنه، خاصة أنه يعد بقوة ليحكم هذا الشعب، فأنا لست من أنصار الدخول في الحياة الشخصية للفنانين، فما بالك بالدخول في الحياة الشخصية لمن لا يستحب أن تدخل في حياته العامة فضلا عن الخاصة، لكن على أي حال أريد أن أنتهز أجواء البهجة العارمة التي تعيشها مصر بعد خطوبة السيد جمال والتي سيكتب الموالسون غدا أنها شجعت ملايين الشباب والفتيات على عدم القعود على رصيف الحياة وهجر العنوسة التي اتخذوها منهجا لهم، والدخول في معترك الحياة، كما فعل السيد جمال مبارك؛ لذلك ربما كان من المفيد أن نشيع وسط هذه الأجواء المبهجة عددا من الأسئلة التي نسألها عادة لأي صديق

لنا يتخذ قرار الخطوبة الخطير: بذمتك ألسنا نسأل كل من يخطب ممن نعرف: «خدت شقة؟ وضبتها؟ نويت على إمتى؟ هتبدأ تجهز إمتى؟»، فكيف لا نسأل أسئلة مثل هذه لمن يتم إعداده لكي يحكمنا في يوم من الأيام؟ هيا بنا إذن نسأل تلك الأسئلة مستعيذين بالله من الشيطان الرجيم الذي قد يلقي في قلوبنا الحسد والبغضاء اللذيْن لا يليقان بفرحة كالتي نعيشها.

ربما كان السؤال الأول الذي يتبادر إلى الذهن هو: أين سيسكن السيد جمال مبارك بإذن الله بعد زواجه؟ لن أكون مواطنا قليل الأدب فأقول إنه سيؤجر قصر المانسترلي إيجارا جديدا، فأنا متأكد أن لدى السيد جمال شقة فعلا، ولن أسأل: كيف حصل عليها؟ فأنا أعلم أنه عمل طويلا بالخارج ولديه تحويشة عمر نالها من كده وعرقه، وبالتأكيد اشترى بها شقة لن تقل بأي حال من الأحوال عن «ثلاث أود بمنافعهم وعفشتين مية وأودة غسيل»، ولن يغلب السيد جمال مبارك في تجهيز شقته، خصوصا وحوله عدد وفير من خبراء الدهان والتلميع والنقاشة السياسية والسباكة الفكرية وكلهم مستعدون للخدمة دون أدنى مقابل، لكن تظل المشكلة الحقيقية التي يواجهها هي في تجهيز الشقة، خاصة وقد ارتفعت أسعار العفش والأجهزة الكهربائية ومستلزمات العروسين ووصلت إلى أرقام فلكية لا أعتقد أن مرتبه من أمانة لجنة السياسات يمكن أن يغطيها، بالمناسبة ألا صحيح، كم مرتب السيد جمال مبارك في لجنة السياسات، وهل هو الآخر سر خطير لا يمكن لنا أن نعرفه، أم أن من الحكمة أن نعرفه لكي يتخذه شباب مصر قدوة لهم ويعرفوا أنه يعيش في ظروف قريبة من ظروفهم؟

عموما، ليس هذا موضوعنا الآن، فالأهم بالنسبة لدينا أن نتشارك مع السيد جمال مبارك في خبراتنا كشباب في الخطوبة والتجهيز للزواج، وإن كنا لا نعلم حتى الآن هل هو قاري فاتحة فقط أم ملبس دبل؛ فكل ما نشر هو خبر مبهم عن خطوبته، لكننا سنفترض أنه يجهز للزواج من الآن، وسنحاول أن نعينه على ذلك بما لا يرهق مرتبه الضئيل الذي يتقاضاه من لجنة السياسات، مقدرين له أنه يعمل من أجل رفعة الوطن دون أن يطلب جزاء ولا «شاكيرا»، كما أننا لا نريده أن يعتمد في التجهيز على علاقاته وصداقاته برجال الأعمال الذين يملكون كل شيء في مصر؛ لأن ذلك سيضيع من يده هذه الفرصة الذهبية التي تجعله يقترب من الشعب ويثبت له أنه «واحد منه» ولم يهبط عليه بالباراشوت، كما يقول المرجفون في الأرض.

يعني تخيلوا لو قرر السيد جمال مبارك ألا يشتري الأدوات الصحية وشغل السباكة من سيراميكا كليوباترا أو محلات السلاب، حيث يمكن أن يوفر له أبو العينين والسلاب خصومات هائلة، بل قرر أن ينزل إلى الرويعي ليشاهده الناس وهو يفاصل على طقم خلاط مستورد، أو يخطف رجله إلى الفجالة ليفاصل على سيراميك فرز تاني. ماذا لو قرر ألا يشتري نجفا إسبانيًا أو إيطاليًا لشقته وقرر كأي عريس في مقتبل العمر وميوعة الشباب أن ينزل إلى درب البرابرة، حيث لا يوجد برابرة، بل توجد مجموعة من أجمل أنواع النجف المقلد ببراعة لا تجعلك تفرقه عن المستورد في شيء، ولربما طلع له فوق بيعة النجف بشمعدان مط يضعه على السفرة أو لمبادير شياكة يستخدمه في أنصاص الليالي وهو يرسم سياسات مصر في الفترة القادمة.

طيب، ماذا لو رفض السيد جمال مبارك أن يشتري غرفة النوم أو السفرة أو الصالون من الخارج، كما يفعل الأغنياء في بلادنا عادة، وقرر أن يخطف رجله إلى دمياط لكي يشتري عفشه من «نحن البربري» أو غيره من تجار الأثاث المتميز في دمياط؟ بالمناسبة إذا وجد أن أسعار هؤلاء غالية، يمكن أن أدله على قرية خارج دمياط بقليل بها مجموعة ورش تبيع لأصحاب المعارض، وسيوفر ثلث السعر تقريبا وكل ما عليه أن يختار من الكتالوجات الأنيقة ما يعن له ويحدد موعد التسليم ويمكن للفصال أن يحقق له أسعارا لا يتخيلها، أما إذا أراد أن ينزل إلى مستوى الغالبية العظمى من الشعب فهل يمكن أن نراه يوما ما في المناصرة يفاصل على «سفرة أرو» غير مدهونة لكي يضمن تنزيلا مذهلا في سعرها، إذ لربما ساعدناه حينها في أستورجي معتبر وخدمناه في قماش تنجيد كراسي السفرة؟ هل يمكن أن ينزل إلى وكالة البلح ليشتري قماش الأنتريه على ذوقه بدلا من أن يدبسه نجار الأنتريهات في قماش زيتي لا يليق ذوقه البلدي به وبعروسته كخريجين للجامعة الأمريكية التي لا تحب الزيتي؟ هل سينزل مع عروسته إلى الموسكي ليأخذا فكرة عن أسعار طقم الصيني وطقم الجيلي وطقم الشاي والفناجين؟ وهل سيزوران عمر أفندي والصالون الأخضر ـ وهو بالمناسبة الشيء الوحيد الذي ظل أخضر في مصر ـ لكي يأخذا فكرة عن الملايات والكوفرتات والفوط وأغطية المخدات ويحصلا مع ما سيشتريانه على روب قطن هدية للعروسين؟ هل سيذهب إلى محل (ستاير النسيان) الكائن أسفل كوبري فيصل لكي يحصل على خصم مذهل في الستاير مع عمل الكرانيش على حساب المحل؟ هل سينزل إلى شارع عبد العزيز لكي يبحث عن أجهزة محروقة تفرق

مئات الجنيهات عما يباع في محلات المهندسين ومدينة نصر، وهل يمكن أن يسمح لنا بأن «نوقع» له من سوق الإمام الشافعي حبة براويز وتحف ولوحات مقلدة ينتورها في أرجاء الشقة.

سيدخل جمال مبارك الفرحة على قلوب المصريين لو فعل كل ذلك؛ لأنه سيثبت لهم أن ما يقوله في حواراته عن كونه واحدا منهم هو أمر حقيقي وليس شغل تصريحات، سيثبت لهم أنه عصامي كأبيه الذي لم يولد وفي فمه ملعقة من ذهب، والذي يحب بالتأكيد لابنه أن يعاني في تجهيز نفسه تماما كما فعل هو، صحيح أن الزمن غير الزمن والأسعار غير الأسعار، لكنها فرصة سانحة لكي يتعرف الأب والابن معا على طبيعة الأسعار في عصر الرخاء الاقتصادي الذي نعيشه، ويأخذا فكرة كيف يكمل الشعب المصري نصف دينه، فالخوف كل الخوف أن يكون أحد الموالسين قد أعطاهما فكرة مضللة مفادها أن الشعب المصري أصبح من فرط تحسن أحواله الاقتصادية يذهب لتجهيز أبنائه من دبي أو إيطاليا، ستربك هذه الخطوات المعارضة وستثبت أنها كاذبة وحقودة وعايشة في الوهم، وستثبت أن هناك فكرا جديدا بالفعل في مصر، وستعطي دفعة قوية للصناعة المصرية، لكن مشكلتها الوحيدة أنها تتطلب لإتمامها مجهودا كبيرا بين أصحاب المحلات والعاملين والمترددين على مناطق الرويعي والفجالة ودرب البرابرة والمناصرة ووكالة البلح والموسكي وأول فيصل وشارع عبد العزيز، فبالتأكيد يحتاج كل هؤلاء إلى وقت طويل قبل تجنيدهم في أمن الدولة.

٢٠٠٦

الغاز سلاحا للردع!

«لازم نفكر بره الصندوق يا جماعة، ما فيش حل لمشاكلنا غير التفكير بره الصندوق».

يا سلام، من زمان وأنا أحلم بفرصة تسنح أستخدم فيها هذه العبارة كافتتاحية لشيء ما أكتبه؛ لأنني لاحظت أنها تجذب انتباهي كقارئ كلما وجدتها في مطلع مقال ما، وكمشاهد كلما وجدت أحدا يستخدمها في حوار تلفزيوني؛ لذلك قررت أن أستخدمها لكي ألفت انتباهك إذا كنت من الذين يحبون الجمل الطنانة زي حالاتي. أما وقد لفتت الجملة انتباهك وتورطت في القراءة لحد هنا، فدعني أطمئنك أنني لم أجذب انتباهك عبثا دون أن يكون لديَّ حل من خارج الصندوق، فقد ألهمني الله ووجدت تفكيرا غير تقليدي من خارج الصندوق يليق على الجملة الافتتاحية يمكن أن نواجه به غشومية جماعة الإخوان المسلمين بعد أن زهق الناس من المظاهرات والمسيرات والوقفات الاحتجاجية، وبدون أن نخرج على السلمية، التي سأظل أومن بها مع أنها نفسها كفرت بنفسها.

كان لعمنا الأديب الكبير محمد المخزنجي قصة جميلة نشرت في صحيفة (الدستور) عام ٢٠٠٦ كان عنوانها (زوموا)، وكانت تحكي

عن حل عبقري لجأ إليه شعب مقهور للتخلص من استبداد حاكمه؛ حيث تجمع الشعب كله في الطرقات في يوم واحد وأخذ كل فرد يزوم غاضبا، ومن أصوات الزوم المتراكمة المتحدة تجمع صوت هادر أجبر نظام الحكم على السقوط. لا يا سيدي، ليس هذا هو الحل الذي أدعو إليه الآن، صبرك بالله، أعرف أن بعد كل ما حدث من هتافات في الثورة بمراحلها المختلفة، ومع الضجيج الذي يحيط بكل مدننا ومع الحر والخنقة، لن يكون لأحد نفس أن يخرج منه صوت زوم أصلا، وبالتالي لن تكون هذه الفكرة قابلة للتطبيق أصلا.

لماذا، إذن، تذكرت قصة المخزنجي؟ تذكرتها لأنني أحتاج منها فقط فكرة التجمع، أما الزوم فأدعو لاستبداله بسلاح آخر هو سلاح الغازات التي تخرج من جسد الإنسان، والتي لا أدري لماذا يجد البعض حرجا في تداول التسميات التي تطلق عليها في كتب التراث وخصوصا كتب الفقه، لعلك سمعت عن قول الشاعر العربي في وصف نفاق الناس لأحد أصحاب السلطة «وعَدّ الناس ضرطته غناء.. وقالوا إن فساه قد فاح طيبُ»، لن أغضبك طبعا بذكر التسميات الشعبية التي تطلق عليها لأن هذا قد يؤذي أخلاقك البورجوازية، التي تتصور أن عدم تسمية الأمور بمسمياتها يمكن أن تخفيها من الوجود، ولذلك لن أنشغل بالمسميات، بل سأبقى مع جوهر الفكرة الذي يدعو لإنشاء حركة شعبية تقوم باستخدام الغازات الخارجة من الجسد في مواجهة السلطة الإخوانية المستبدة، فيتم إعلان حالة الفساء العام في مواجهة النفير العام الذي يطلقه الإخوان، تخيل مليون مواطن على الأقل وهم يقفون في مواجهة مكتب الإرشاد باعتباره أُسّ البلاء في هذه البلاد، حاملين علما أخضر بلون ورق الكرنب وعليه قطعتا

محشي كرنب متقاطعتان كأنهما سيفان يحيطهما عدد من البيضات المسلوقات كتب على كل منها شعار الحركة «إدّيها»، يقف هؤلاء جميعا في انتظار إشارة البدء وهم مسلحون بحب الوطن وبالغازات المتراكمة في بطونهم على مدى أيام، ثم يستديرون في لحظة واحدة ليواجهوا المكتب وقد وضع كل منهم كمامته على أنفه ثم يطلق كل منهم غازه الحبيس منفلتا «كإنه سحبة قوس في أوتار كمان»؛ شريطة أن يراعى في ترتيب الصفوف وضع أصحاب الغازات الأخطر فتكا في المقدمة، بالمناسبة لي صديق لو أطلق غازاته على شعب لأحرقه، ومثل هذا لو لم يتم وضعه في مقدمة الصفوف يمكن أن يطلق غازات صديقة توقع خسائر غير مرغوب بها.

أعترف أنني ترددت كثيرا في إعلان هذه الفكرة برغم ما وجدته من تشجيع عندما عرضتها على بعض الأصدقاء في ساحة الفيس بوك، ولم يشجعني على «إطلاقها» بين يديك سوى ما حدث لي قبل أيام وأنا أحيي ذكرى عمنا الساخر الأعظم محمود السعدني بقراءة كتبه كما تعودت، فوجدته في كتابه البديع (حمار من الشرق) يشرح للخواجاية الباريسية التي تحاوره كيف أن حال أمتنا تدهور إلى حد جعل فقهاءها يوما ما ينشغلون بمناقشة قضية فكرية مثل: «هل ينقض وضوء من يحمل على كتفه قربة فساء ويدور بها بين الناس في الأسواق؟»، وعندها قالت له الخواجاية: «ولكن ما هو الفساء، فأنا لم أسمع به بعد؟»، فرد عليها السعدني: «الفساء يا حلوة هي مادة كيماوية بفعل تفاعل البصل مع الثوم مع الفول مع الكرات مع السمك البلطي مع الشاي الأسود المخروط، ومن خلال هذا التفاعل تحدث قذائف أقوى مفعولا من القنبلة الذرية، وتشيع روائح

في الجو محرمة دوليّا شأنها شأن الغازات السامة وقنابل النابالم». قالت: آه، أتقصد غازات؟ قلت: هي غازات بالضبط، ولكن غازاتنا تختلف عن غازاتكم، غازاتكم هي نتيجة لأكل الشيكولاتة والجاتوه، ولكن غازاتنا أعوذ بالله. يقال إن بهانة الحجاوي جدة العبقري زكريا الحجاوي وزوجها برعي السعدني جد العبد لله، استطاعا وحدهما صد الغزو الصليبي على دمياط في العصر الوسيط. قالت: إذن فأنت من أسرة محاربة ومن طبقة عسكرية لها تاريخ. قلت: الحقيقة أن جدي برعي لم يكن عسكريّا ولكنه كان فلاحا، وجدة الحجاوي لم تكن مجاهدة ولكنها كانت تصطاد السمك من بحيرة المنزلة، وذات صباح كانا يتريضان على الشاطئ عندما لمحا قطع الأسطول الفرنسي تقترب من البر، وفي الحال قاما بتشليح بعض ملابسهما وأطلقا بعض الغازات في الجو فمات كل العساكر الفرنساوية وارتدت الغزوة الصليبية، ونجت مصر بفضل هذا الاختراع الجهنمي الغريب».

لا أقول ـ لا سمح الله ـ إن الإخوان محتلون كالفرنسيس لكي نضربهم بهذا السلاح الشعبي، لكني فكرت أنه إذا كان البعض يستعجل إسقاطهم بالصندوق، والبعض ليس لديه وقت لانتظار ثورة شعبية ضدهم، وإذا كان المولوتوف قد وجد من يقوم بشرعنة استخدامه، فلماذا لا نشرع استخدام الغازات الآدمية ضدهم، جت عليها هي يعني؟ على الأقل هي أقل فتكا من التصريحات التي تنطلق من أفواه أغلب المتحدثين على الساحة السياسية، هذه فكرتي المتواضعة، إن أعجبتك فادرس كيفية تنفيذها، وإن لم تعجبك فلن تكلفك شيئا سوى فتح الشباك واعتبارها «فكرة» وعدت.

مايو ٢٠١٣

ليلة اختفاء التمثال!

خبر مفزع حقًا ذلك الذي نشرته صحيفة (المصري اليوم) عن اختفاء تمثال السيد الرئيس الذي تم نصبه ـ ونصبه هنا فعلٌ وليس صفة ـ في ميدان الكيت كات من قبل عدد من المواطنين المحبين للرئيس، والذين لم يشاهدوا على ما يبدو فيلم (الحب وحده لا يكفي) برغم أن أحداثه كانت تدور قريبا منهم في جزيرة الوراق؛ ولذلك فقد أهملوا إكمال واجبهم المقدس في حماية التمثال والسهر على سلامته وأمنه واستقراره، لتكون النتيجة المؤسفة أن التمثال اختفى دون أن تتوفر معلومات مؤكدة حول مصيره، وهو ما أقض مضاجعنا وأثار شجوننا وجعلنا نشعر باكتئاب حقيقي أن يتم اختطاف تمثال سيادة الرئيس من بيننا ونحن نرى دون أن نحرك ساكنا ونذود عنه باذلين الغالي والرخيص، صحيح أنه لم يعد هناك شيء رخيص في عهد سيادته، لكن لا مشكلة، دعونا نفاصل على شيء غالٍ إلى أن يصبح رخيصا لنبذله بعد ذلك.

نحن قلقون جدًا يا ناس، برغم أن البعض من ولاد الحلال طمأننا وقال لنا إن التمثال والحمد لله بخير وإن كل ما في الأمر أن الجهات المسئولة قامت بنزعه من مكانه بناء على أوامر عليا، مذكرا إيانا أن

حكام هذا العهد لا يحبون أبدا أن يتم إقامة تماثيل لسيادة الرئيس، وليس كما يقال لأنهم يخافون مما جرى لتماثيل العراق، فالثابت الصحيح أن موقف حكامنا من موضوع التماثيل موقف مبدئي يسبق إزالة تمثال صدام وشاوشيسكو وغيرهما من الحكام الذين رحلوا ورحلت تماثيلهم معهم، وبقي سيادة الرئيس بحمد الله من غير أي تمثال. هنا يطرح البعض تساؤلا عن الذي يجعل سيادته يتسامح مع الصور واللافتات واللوحات المرسومة له، مما يدفع للسؤال عما إذا كان هناك موقف ديني وراء موضوع التماثيل هذا فيصبح واجبا أن نزداد له حبًا وندعو له بحرارة أكثر خلف شيخنا الرقيق محمد سيد طنطاوي في كل صلاة جمعة؟ على أي حال حتى لو لم يكن هناك موقف ديني فإحنا كده كده بندعي، وربنا العالم بالقلوب.

لكن البعض ينكر حكاية البعد الديني الذي يجعل سيادته يكره التماثيل، ويستدل على ذلك بأن هناك تماثيل في قلب القاهرة لنجيب محفوظ وطه حسين وعبد المنعم رياض، مع أن إنجازات هؤلاء لا تأتي ذرة في بحر إنجازات سيادة الرئيس، فإذا كان عبد المنعم رياض بطلا من أبطال مصر، فالرئيس هو صاحب الضربة الجوية الأولى والأخيرة، بالإضافة إلى عدد لا يحصى من الضربات البرية في مواقع البناء والإنتاج. وإذا كان نجيب محفوظ قد حصل على جائزة نوبل، فالرئيس له جائزة باسمه يمنحها كل عام، ولا وجه للمقارنة بين حاصل على جائزة وبين صاحب جائزة من بابها، وإذا كان طه حسين قد قهر الظلام، فالرئيس قهر أشياء أخطر بكثير من الظلام.

عموما، ليست مشكلتنا الآن أن نطالب بنزع تماثيل أحد، فقلوبنا مشغولة بالاطمئنان على مصير التمثال، خاصة أننا لا نريد أن نعطي

فرصة لكل هماز لماز مشاء بنميم؛ لكي يطلق التشنيعات والتخرصات حول مصير التمثال ليقول إن التمثال زهق من كتر النفاق وهج على بلد تانية، ويدعي البعض الآخر أنه لم تكن هناك تعليمات رسمية بنزع التمثال وإلا لما كان قد تم وضعه من الأساس ويستشهد بتصريحات مسئولي المحافظة للمصري اليوم والتي قالوا فيها إنهم لا يعلمون عن مصير التمثال شيئا. وهو ما جعل البعض يشعر بمشاعر قلق شديدة على مصير التمثال. بالطبع لست من القلقين على أن يحدث للتمثال مكروه فنحن نعلم أن محبة شعبنا للرئيس كبيرة، وأنه يكن له معزة خاصة بدليل تدافعه على تعليق لافتات المبايعة له في كل حدب وصوب، صحيح أن ضباط الشرطة ساهموا في تذكير المواطنين بضرورة ذلك، ولكن ذلك كان من باب أن الذكرى تنفع المواطنين.

إن الشعوب التي لا تحترم تماثيل حكامها وتمثّل بتلك التماثيل هي الشعوب المقهورة المقموعة التي لا تتمتع بإنجازات الحاكم ولا تحس أن قلبه عليها، ولعلنا جميعا شاهدنا ما حدث في العراق من مهازل عندما تسابق المواطنون الكفرانون من عيشتهم على تكسير تماثيل المهيبِ الركن صدام حسين ليأخذ كل منهم حتة يفرغ كبته فيها بالطريقة التي يراها مناسبة؛ البعض اكتفى بالدوس بالأقدام والبصق والضرب بالأحذية، والبعض الآخر قام بصهر ما حصل عليه من التماثيل النحاسية لتحويله إلى كوز ينفعه في الحمّام، ويقولون ـ والعهدة على الراوي ـ إن مواطنا عراقيًا تعرض للاغتصاب في السجن قام بخلع تمثال صغير من مكانه واصطحبه إلى البيت وأصر على اغتصاب التمثال، لكنه فشل من شدة خوفه، ويقولون إن التمثال صحي بالليل واغتصبه.

وبرغم أننا والشعب العراقي شعب عربي واحد ضمه في حومة البعث طريقُ، على رأي اللواء محمد عبوهاب، إلا أننا نؤمن بأن كل الحكايات السابقة تحدث فقط في الدول المستبدة التي تعاني من الظلم والقهر والفقر والقمع، أما في بلادنا فنحن مهما كنا قلقين على مصير تمثال السيد الرئيس ومهما طالبنا بأن نعرف مصيره وإلى أين ذهب، فنحن نؤمن أنه سيلقى معاملة تليق به، ونؤمن أنه أيّا كانت الجهة التي وقفت وراء نزع التمثال من مكانه فهي يجب أن تعلم أن كل فرد منا بنى في قلبه تمثالا لسيادة الرئيس؛ لأن ما فعله لنا لا يحتاج في الحقيقة إلى تماثيل لكي نتذكره، فإنجازاته حاضرة بيننا أينما حللنا أو ارتحلنا، في الماء الذي نشربه والهواء الذي نتنفسه والبطيخ الذي نشقّه، والكوبري الذي نقف بالساعات عليه، والمحور الذي نأخذه، والمونديال الذي لا ننظمه، والصرف الذي نصرفه في المواسير، والمستشفى الذي لا ندخله، والتلفزيون الذي لا نشاهده، والصحف القومية التي نأكل عليها، فهل نحتاج بعد ذلك كله إلى تماثيل؟

وحتى يظهر تمثال الحق ليزهق الباطل، أضم صوتي إلى صوت المطالبين بعمل حملة إعلانية في الصحف تعلن عن مكافأة قيمة لمن يستدل على التمثال ويبحث مع الشرطة عن مختطفيه، مصحوبة بحملة موازية موجهة لمن يفترض أنهم خطفوا التمثال تبدأ بجملة «عزيزي سارق التمثال: تذكر قبل أن تؤذي التمثال أن لديه أسرة تحبه، أسرة مكونة من ٧٠ مليون مواطن، وتذكر أن كل أذى تلحقه بالتمثال الواقف هيقعد لك في عيالك وعافيتك».

٢٠٠٥

دليل الحاكم الحنتيت إلى فن الإتيكيت

ـ لا تفتح صدرك أمام الشعب في بداية حكمك إلا إذا كنت تمتلك الشجاعة الكافية لفتح صدرك طيلة فترة حكمك.

ـ التلويح بيديك عاليا لن يجعل منك معبود الجماهير. وصوتك العالي دليل على ضعف موقفك، وتبريق عينيك دليل على بوظانك من الداخل، اصنع إنجازات شعبية ثم اترك إنجازاتك تصرخ بالنيابة عنك، واكتفِ أنت بابتسامة هادئة.

ـ الاهتمام بالنظافة الشخصية «يُسَهِّل» طريقك في الحكم، ويفشل محاولات أعدائك في الإمساك بك.

ـ حاول التحكم في عينيك أمام كاميرات التصوير، لا يحب الناس أن يروْا حاكما تتحرك حدقتا عينيه بشكل يوحي بأنه خائف من كبسة البوليس في أي وقت.

ـ استخدام كلمات غريبة على شعبك يجعل منك عرضة للسخرية بشكل أبلج.

ـ استخدام الإصبع عند مخاطبة الجمهور يمكن أن يحدث نتائج عكسية تماما، ويذكر الناس بمصير من سبق لهم استخدام الإصبع في مخاطبتهم.

ـ عندما تحضر اجتماعا مع وفد أجنبي يحتوي على نساء، تذكر إبعاد يديك تماما عن مناطق التوتر.

ـ حاول ارتداء أحذية سهلة الملبس لكي تساعدك على الجري من المساجد التي تصلي فيها، ولا تخرج على الناس حافيا تحت أي ظرف؛ لأن صورة الحاكم الحافي يمكن أن يحبها الناس ويعتبروها دليلا على التواضع، إذا لم تكن قد التقطت له وهو يسير بصحبة حرس مدجج بالسلاح ويركب سيارة مصفحة، فهي عندها توحي بخوف الحاكم من شعبه.

ـ إذا كنت متعودا على الكذب، فحاول اختيار متحدثين باسمك يوحي مظهرهم بكثير من الصدق وأقل قدر ممكن من اللزوجة.

ـ لا تلجأ إلى إحاطة نفسك بمساعدين لديهم ضعف أمام الزواج العرفي.

ـ لا تنظر إلى ساعتك وأنت في اجتماع مع ضيف أجنبي، خاصة إذا كان يعلم أن الوقت في بلادك ليس مهمّا على الإطلاق.

ـ ارتداء ملابس فضفاضة يعطي انطباعا سياسيّا بأنك لا تملأ مركزك. حاول مصادقة خياطك الخاص لأنه يمكن أن يكون عدوّا لدودا لك.

- الضرورات تبيح المحظورات؛ ولذلك قد يكون ابتلاعك لبعض السوائل الموجودة في منطقة الحلق أكثر فائدة للوطن من إخراجها لتستقر في منديل قماشي أمام الملايين.

- إذا كنت قد تعودت على الظهور متجهما أمام الشعب لكي تعطي انطباعا بالجدية، فعليك أن تتذكر ذلك في لقاءاتك مع المسئولين الأجانب؛ لأن ظهورك معهم وأنت فاشخ ضبك على اتساعه يفسد كل ما بذلته من مجهود لكي تعطي انطباعا بالجدية وحمل الهموم.

- لا تختر حرسا أطول وأضخم منك؛ لأن سيرك وسطهم أمام كاميرات التلفزيون يحولك من سياسي إلى «فارسير».

- إذا لم تكن تعرف معنى فارسير، يمكن أن تلجأ لإدارة الترجمة التي تعمل معك وستقول لك إنه مصطلح يطلق على الممثل المتخصص في الأدوار الهزلية.

- إما أن ترفع حزامك أعلى خط الوسط، وإما أن تقوم بالتخلص من الكرش التي أصبحت تظهر كلما نزل الحزام قليلا، أو تحقق إنجازات سياسية تجعل كرشك موضع حب الناس بدلا من وقوفهم لك على الفاضية والمليانة.

- تذكر وأنت تختار الكرافتة المناسبة للخروج بها على الشعب، أن كرافتاتك لن تغني عنك من الله شيئا، ولو دامت الكرافتات لغيرك لما وصلت إليك.

- لا تضع الكثير من العطور؛ لأنها لمعلوماتك لا تصل إلى مشاهدي التلفزيون، والأفضل أن تهتم بإخفاء الرائحة التي تنبعث من قراراتك السياسية.

- هناك فرق بين التمشية في الطرقة الواصلة بين أودة النوم والمطبخ، وبين التمشية اللائقة بحاكم يسير في مطار دولة أجنبية يزورها، ارفع قدميك عن الأرض وأنت تسير، فالتزحيف في المشي يشير بصورة خفية إلى تزحيف السياسات.

- لا تؤرجح ذراعيك أثناء السير كأنك راجع من الفرن الإفرنجي بكيس من أرغفة الفينو، احرص أثناء مشيك على جعل حركة الذراع اليمنى مع القدم اليسرى، وحركة الذراع اليسرى مع القدم اليمنى، لكن حاول أن تتدرب على هذه الحركات قبل أدائها؛ لكي لا يستدعي عقلك الباطن مشية إسماعيل ياسين في أفلامه الكوميدية فتجيب لنفسك المزيد من الكلام.

- وأنت تختار سياسة مناسبة للظهور على الناس في خطابات سياسية، ضع نصب عينيك المثل الشعبي القائل « مش هُر هُر أو تُر تُر»، بحيث لا يراك الناس تخطب كل يومين، أو لا يرونك تتحدث على الإطلاق في الأوقات العصيبة، تذكر أن الناس عندما كانت تأمل فيك الخير كانت تستحمل قدرتك المدهشة على الرغي دون انقطاع، وحاول أن تشغل نفسك بالتساؤل عن السر الذي يجعل المحيطين بك ينصحونك دائما بقلة الكلام منعا لتصيد الأخطاء.

ـ مهما اجتهدت في رفع رأسك لكي توحي بالثقة، فتذكر أن رأسك سينخفض مع كل مواطن يراق دمه أو تهان كرامته أو يضيق رزقه.

ـ أخيرا: عند استخدامك لجهاز الآي باد وتحت أي ظرف من الظروف وأيًا كانت المبررات ومهما كانت الدواعي وبغض النظر عن الملابسات، ما تلحسش صباعك، ما تلحسش صباعك، ما تلحسش صباعك.

فبراير ٢٠١٣

ما بتهزناش الزلازل يا باشا!

صدقني، لم نكن في حاجة إلى زلزال بالأمس ليذكرنا أننا لا زلنا نعيش في نفس دولة الظلم والاستهانة بالآدمية التي زارها شقيقه قبل ٢١ عاما في نفس اليوم والتوقيت.

وفِّر كلامك عن أي رسائل يحملها الزلزال، وتذكر أننا معتادون على الاستقبال الخاطئ للإشارات الإلهية والتنبيهات الكونية، وأننا سنحول الزلزال إلى فقرة مبتذلة في حربنا اليومية التي نحاول أن نجهز فيها على بعضنا، سيقول الإخواني إن الزلزال يعني أن عدالة السماء ليست راضية عنا، كأنها كانت متجسدة عندما كان جيكا والجندي وكريستي وعشرات غيرهم يقتلون على يد الداخلية التي كان هو ورئيسه يهللان لها ويسخران من كل مطالب بتطهيرها وإصلاحها، وسيقول أنصار منهج «افرم يا سيسي» إن الزلزال دليل على أن عدالة السماء راضية عنا كل الرضا؛ بدليل أن الزلزال لم يتسبب في مقتل مواطن واحد، ولا أظنك بعد كل ما شهدته من هراء ستندهش لو وجدت «مواطنا شريفا» يعتبر الزلزال دليلا على أن الأرض رقصت طربا عندما سمعت أن الفريق السيسي عازم على حكم مصر فور «تضبيط» التحصينات اللازمة.

لا تظن أن كوارث الدنيا يمكن أن تفرق معنا ببصلة، فنحن لن يوقظنا من غفلتنا زلزال شديد اللهجة ولا بركان فتاك الحمم ولا إعصار كاسح الخراب، بل لا قدر الله لو أصابتنا كل تلك المصائب لاستغللناها في تبادل الاتهامات واللعنات، وبادرنا إلى توظيف ما ستنتجه من خراب لتسجيل «الأبناط» اللازمة لحسم «عركة» الكرسي.

صدقني، من لم يعظه الموت فلا واعظ له، ولو كان هناك شيء يمكن أن يغيرنا إلى الأبد، لكانت دماء أبنائنا التي سالت على الأسفلت منذ ٢٥ يناير وما تلاه ووالاه، حاول أن تذكر أحدا الآن بهؤلاء وبحقوقهم الضائعة وبما فعلناه بمطالب الثورة التي ضحوا بحياتهم من أجلها، وستجد نفسك على الفور متهما بأنك راغب في المتاجرة بدمائهم أو محرض على مؤسسات الدولة العظيمة أو راغب في شق صف الشعب المشغول بالإجهاز على أعدائه، الذين قال له بهوات التوك شو إنه يجب أن يجهز عليهم سريعا؛ لكي يهدأ ويستقر ويدير عجلة الإنتاج ويتمتع بسيل المعونات المنهمر من الشرق.

لا تحاول أن تسأل أحدا: «كيف يمكن لشعب أن يجهز على بعض من أبنائه، حتى لو كان ذلك البعض ذات نفسه لا يمانع في الإجهاز على البعض الآخر؟»، فكلام مثل هذا ستفوح منه رائحة مريبة، يقول خبراء الفضائيات إنها رائحة الطابور الخامس اللعينة التي تحجب عطر الانتصار المجيد عن خياشيم المواطنين؛ لذلك عندما ترى مثلا ضابطا يقف في عرض الطريق يضرب مسيرة سلمية برصاص رشاشه فيقتل شابًا في عمر الزهور في سويداء القلب، فإن لم تبارك ذلك وتهلل له، فكبيرك أن تصمت وتشيح بوجهك كأن الأمر لا يعنيك، لكن إياك أن تفقد عقلك فتفتح فمك بالرفض أو

الامتعاض أو حتى بالتساؤل عما إذا كانت تصرفات قذرة مثل هذه ستجلب لنا الأمن والاستقرار فعلا.

عليك أن تعتمد العقلية التي لن تحصل على صك الوطنية بغيرها: «هؤلاء خوارج يؤمنون بالخلافة ويكرهون الهوية المصرية ولذلك فقد سقطت كافة حقوقهم الإنسانية، وحتى لو كانوا لا يحملون سلاحا فمجرد وجودهم خطر على هوية البلد، وقتل أي ضابط شجاع لهم دون تطبيق القانون يمثل ثأرا لزملائه الذين سقطوا شهداء في كرداسة وسيناء وغيرها»، إياك أن تظن أن إدانتك لكل حادث إرهابي يسقط ضحيته ضابط يؤدي واجبه أو مجند مغلوب على أمره، ستسمح لك بأن تنبه إلى أن الرصاصة التي يقتل بها ضابط مواطنا بشكل همجي لا علاقة له بالقانون، سيدفع ثمنها للأسف زميل له في مكان آخر، «فُكك» وإذا كانت لديك شكوك تخص قدرتنا على أن نقضي على أنصار تيار بأكمله، فعلى الأقل دعنا نحاول أن نجبر من سيتبقى من أفراده على الخضوع، وإذا كنت تتمنى أن ننتصر على تيارات الشعارات الإسلامية بصناديق الانتخابات، بما أننا واثقون من رفض الشعب لهم، أرجوك احتفظ بأمانيك المخنثة لنفسك ودع غيرك يقتل في صمت.

على الجانب المقابل، لا تحاول تذكير أنصار الإخوان بخطاياهم التي أوصلت الوطن كله إلى ما هو فيه الآن، لا تحاول أبدا أن «تبدأ الحكاية من أولا»، لا تحاول إقناعهم بأنهم لن يستطيعوا تغيير الواقع إذا لم يغيروا أنفسهم أولا، ويتخلصوا من قياداتهم التي خانت دماء الشهداء مرة تلو الأخرى، لا تطلب منهم أن يأخذوا هدنة للتفكير والمراجعة والتأمل قبل أن يواصلوا الانتحار من أجل أن يعيدوا إلى كرسي الحكم رجلا ظل عاما بأكمله «أينما توجهه فلا يأتي بخير».

عليك فقط أن تختار: إما أن تموت معهم من أجل رضا قادتهم الكذابين، وإما أن ترقص في الشوارع المروية بدمائهم على أنغام (تسلم الأيادي)، ليس أمامك خيار ثالث فنحن الآن في معركة، والمعارك لا تحب المتحذلقين ولا الوعاظ ولا المتفلسفين ولا المتوجسين خيفة، المعارك لا يسلك فيها إلا أُصحاب «القلب الميت»، فأمت قلبك وأخرس صوتك لكي لا يعلو فوق صوت المعركة الذي لم يعد يطربنا غيره.

أعلم أنك ستبيض لكي تعيد وتزيد في سيرة الشعوب التي أجبرت على العيش المشترك والتوافق الوطني بعد أن دفعت أثمانا باهظة، أرجوك أرح نفسك من عناء الرطّ، فبيننا من يمتلكون آمالا عريضة بأنهم يمكن أن يغيروا قوانين الكون، ألا توجد مرة أولى لكل قاعدة؟ دعنا نحظَ بشرف صناعة المرة الأولى في تاريخ البشرية التي تمكن فيها شعب من أن يصبح كتلة بشرية متجانسة مستقرة بعد أن أخرست أصوات المختلفين معها بالقوة دون أن تضطر لخوض صراع سياسي وفكري طويل المدى.

لا تنكر أن الأمر يستحق المحاولة، وحتى إذا فشلنا في تحقيقه بعد المزيد من الوقت والدم والأحقاد والضغائن، فاعتبر يا سيدي أن من ماتوا كانوا ضحايا للزلزال الذي جاء ورحل بستر ربنا من غير ضحايا، بل إن محاولتنا تلك ستكون أفضل من أي زلزال لأننا لم نخسر فيها سوى الناس، وفي هذه البلاد ليس لدينا أكثر ولا أرخص من الناس.

٢٠١٣

طويلة لسه طويلة

قدرة بعض أبناء شعبنا الأبيّ على «لضم» الأفكار المتخلفة الطائفية الحقيرة في أي أزمة جديدة تواجهنا، ستظل قدرة يقف المرء منّا أمامها مندهش العقل فاشخ الضب مرتبك الوجدان.

عصر الجمعة الماضية وعلى مدخل أحد مولات التجمع الخامس، شاءت الأقدار أن أشهد رجلا يقف مستظلّا بشجرة من صهد الحَرّ، وممسكا بموبايله ليقوم من خلاله بالتوعية السياسية لشخص آخر غائب عن الصورة، لكنه بدا من خلال أداء المتحدث كمستمع جيد لأنه لم يكن ينطق على ما يبدو، على الأقل خلال الجزء الذي استمعت إليه والذي كنت أتمنى أن يطول لو لا أن ابنتي الصغرى لكزتني قائلة: «بابا إحنا كده هنسيح في الحر».

كان الرجل يقول لصاحبه وهو يوعيه: «يا باشا زي ما باقولك كده.. البلد اللي اسمها إثيوبيا دي خمسة وتسعين في المية منها مسيحيين.. لا وإيه مسيحيين كفاتسة زي اللي عندنا.. بياخدوا تعليماتهم من البابا اللي هيناهوّت»، بالطبع حين تستمع إلى هذا المقطع ستفترض ابتداء أن الرجل يحمل فكرا دينيّا متطرفا يسعى من خلاله لتبرير تقصير الإخوان

في أزمة النيل، لكن الرجل لن يجعل افتراضك هذا يعيش طويلا، بل سيعاجلك بمنطق يجعله عصيًّا على التصنيف ويجعل يومك عصيًّا على المرور، خصوصا حين تسمعه وقد طفق يقول لصاحبه: «فلما الكفاتسة الإثيوبيين لقوا البلد خربت بسبب المخروبة اللي اسمها الثورة قالك بقى نستنهز الفرصة ونخلص على المسلمين ونموتهم من العطش.. بس بعون الله بكره الجيش هيخيطهم كلهم». تقتضي الأمانة هنا أن أشير إلى أنه استخدم بدلا من تعبير التخييط تعبيرا شعبيًّا أكثر بذاءة سيتعذر نشره وإن لم يتعذر عليك فهمه كما أظن، وعندما صمت الرجل قليلا توقعت أن الطرف الآخر يناقشه مثلا في عدم معقولية أن يتم «تمويت» المسلمين فقط من العطش لأن النيل لن يفرق بين مسلم ومسيحي، لكنه عندما عاد إلى الحديث اتضح أن الشخص الآخر سأله: «يخيّط مين بالضبط؟»، فأجابه بثقة كانت تطفح من ملامح وجهه ونبرات صوته: «زي ما بقولك كده.. هيخيط الكل بتوع إثيوبيا وبتوع الثورة والإخوان والمسيحيين عشان البلد دي بقى تنضف».

عندما تحدث لي مواقف كهذه، وهي كثيرا ما تحدث لي لسوء حظي، أتذكر المرحوم عبد الحليم حافظ، ليس فقط لأنني أتذكر أغنيته الأحب إلى قلبي «موعود معايا بالعذاب موعود يا شعبي، ولا بتهدا ولا بترتاح في يوم يا شعبي، وعمرك ما شفت معايا فرح، كل مرة كل مرة يرجع المشوار بجرح»؛ بل لأنني أتذكر على الفور عبارته المثقلة بالدلالات «طويلة لسه طويلة». منذ ثلاثة أشهر فقط كنت في لحظة وجدانية مواتية سمحت لي أن ألتقط المعنى فائق الأهمية الذي كان عبد الحليم حافظ يوصله لنا جميعا منذ أكثر من أربعين عاما من خلال عبارته تلك: «طويلة لسه طويلة».

كان عبد الحليم يكرر عبارته تلك كثيرا في أغانيه الطويلة عندما يهيص الجمهور ويزيط ويطلب منه أن يعيد الكوبليه الذي انبسط به، وكأن أفراد الجمهور يتصورون أن عبد الحليم لو استمر في الأغنية دون إعادة كل كوبليه ثلاث وأربع مرات، فستنتهي الحفلة سريعا، وسيكون عليهم أن يواجهوا بقية الليلة بمفردهم بدون صوت عبد الحليم وحضوره الآسر. قد يكون ذلك حقًّا ما كان يدور بذهنهم الجمعيّ فيدفعهم للزياط والهيصة والشوشرة على صفاء عبد الحليم ورغبته في أن يسوق الليلة «زي ما هو شايف»، وقد تكون هناك أسباب أخرى لا نعلمها نحن ولا عبد الحليم، لكن عبد الحليم لم يكن يجد ما يقوله في مواجهة ذلك الزياط سوى أن يردد: «طويلة لسه طويلة»، لكنه كان يقولها في كل مرة بنبرة صوتية تعكس حالة مزاجية مختلفة. أحيانا كانت نبرة الصوت متضايقة ولكن بشكل لا يخفي فرحته بإعجاب الناس، فيبدو أن العبارة تحمل معنى «أنا مبسوط إنكو انبسطتوا سيبوني بقى أكمل لحد الآخر»، وأحيانا تكون النبرة أكثر عتابا وأشد ضيقا فيبدو لي أنها تحمل معنى «يا ولاد الذين يستجري حد فيكو يزيط كده في حفلة لأم كلثوم، كان اترمى بره الحفلة رمية الكلاب»، وأحيانا كانت نبرات الصوت لا تحمل سوى الضيق بذلك الزياط فيبدو أن العبارة تحمل معنى «الله يخرب بيت الحشيش اللي من يوم ما رخص والواحد مش عارف يغني»، وأحيانا تكون النبرات أشد غضبا فيبدو أنه يقول لنفسه: «قلت لمجدي يغلي التذكرة ما سمعش كلامي مافيش فايدة لازم نشرب القرف ده لغاية ما الحفلة تعدي»، لكن العبارة مع الكوبليه الأخير ومع اشتداد آلام عبد الحليم البدنية، كانت تحمل نبرات شديدة العداء والمرارة تشعر فيها

كأن عبد الحليم يريد أن يصرخ في الجميع: «بس يا ولاد المتسخة مش هاعيد أم الغنوة واولعوا بجاز».

كل هذا التخيل لمعاني عبارة عبد الحليم حافظ لا ألزم به أحدا غيري، تماما كما لا ألزم أحدا بالمعنى الجليل الذي التقطته من تلك العبارة التي أصبحت شعارا أسير به في الحياة منذ ثلاثة أشهر وسأسير به إلى ما شاء الله لأشعر براحة نفسية رهيبة كلما اقترب مني شخص ليقول لي كلاما من نوعية «عاجبك اللي حصل في البلد؟ بالذمة مش تسرعتوا؟ خدنا إيه من الثورة؟ مش كان زمان أحلى؟»، فلا أكرر خطئي القديم بأن أقول له كلاما عقليًا منطقيًا هو أصلا لا يريد أن يسمعه؛ لأنه إما كاره للثورة وإما غير مشغول بفهمها وإما لأنه من معتنقي مذهب «وهي إيه اللي وداها هناك؟»، بل أكتفي بأن أبتسم له ابتسامة بلهاء وأقول له وقد تقمصت روح عبد الحليم: «طويلة لسه طويلة»، ثم أتركه وأمشي ممتلئا بجمال المعنى الحليمي ومستعدًا للكوبليه القادم من حياتي.

على نفس الصعيد، ستعبر ذكرى هزيمة الخامس من يونيو علينا كما عبرت علينا من قبل هي وكل ذكريات هزائمنا الصريحة وهزائمنا التي دلعناها وسميناها نكسات، وهزائمنا التي ضحكنا على أنفسنا واعتبرناها انتصارات، وهزائمنا التي اعتمدنا على أن أحدا في حارتنا لن يتذكرها، لأن آفة حارتنا النسيان.

ربما كان الجديد هذه المرة، أننا أصبحنا نستخدم سيرة هزيمة يونيو وسيرة المسئول سياسيًا عنها جمال عبد الناصر، كوسيلة للصوبعة السياسية، الإخوان مستمرون في اتباع عادتهم المفضلة

«كل ما تتزنق اشتم عبد الناصر»، كأن شتيمته ستقنع الناس أنهم أصحاب فكر ورؤية ومنهج، وأعداء الإخوان من محبي عبد الناصر يظنون أن مجرد البكاء على سيرته وتذكير الناس بها سيجعلان الناس يكرهون الإخوان أكثر، وسيجعلان الإخوان يموتون غيظا؛ لأنه لم يخرج منهم قائد عظيم ملهم ساحر مثل عبد الناصر. للأسف كان بعض المتفائلين يظن أن الثورة في موجتها الأولى ستكون فرصة سانحة لنزح كل هذا الهراء من العقلية المصرية، وستدفع الكثيرين إلى أن ينظروا إلى تاريخ مصر الحديث والمعاصر بوصفه حلقات متصلة مترابطة، وهو أمر لو أدركناه لعلمنا أن كل ما نعانيه من أزمات خطيرة مثل ملف مياه النيل وملف سيناء وملف الطاقة وملف الأمن القومي، من أهم أسبابه هو اختيارنا القديم لنموذج الزعيم الملهم صاحب الرؤية الذي يفكر ويقرر «وإحنا كلنا حواليه أو تحت رجليه والشعب بيسعى إليه».

سيرة هزيمة خمسة يونيو تستدعي دائما لدى دراويش عبد الناصر سيرة المؤامرات التي لم تحدث الهزيمة إلا بسببها، فلم نسمع حتى الآن نقدا متكاملا صريحا يخرج من داخل التيار الناصري للأخطاء التي ارتكبها ناصر وأدت إلى الهزيمة، التي لا زالت تؤثر في واقعنا حتى الآن؛ مما يجعلهم شديدي الشبه بالمشروع الإسلامي الذي يعادونه؛ لأن أنصار ذلك المشروع لا يكفون طيلة الوقت عن تبرير فشلهم بالحديث عن المؤامرات، حتى وهم يحظون بالدعم الأمريكي العلني لا يتوقفون عن الحديث عن المؤامرات، وهو ما يجعلك تفكر كم هو عظيم ذلك القانون الفيزيائي الذي أخبرنا أن الأقطاب التي تتنافر هي دائما متشابهة جدًا.

عندما تنتهز فرصة خمسة يونيو لتذكر البعض بأهمية تأمل درس الهزيمة الأهم «لن تحصل أبدا على تنمية شاملة ولا على كرامة وطنية ولا على استقلال سياسي إذا قمت بسحق الحريات الفردية، وإذا تعاملت مع المواطن على أنه رقم فرحان في الصورة»، فستجد من يقول لك: «ما قبل عبد الناصر لم يكن جنة»، دون حتى أن تكون قد قلت يوما ما إنه جنة، وستجد من يصرخ فيك أن: «ما بعد عبد الناصر لم يكن جنة»، كأنك قلت أصلا إنه جنة، وستجد من يقول لك أيضا: «مش أحسن من المتأسلمين ولاد كذا»، كأنه مكتوب عليك أن تكون دائما ملتزما بالبقاء ضمن صفوف فريق تشجعه، وتشتم أمهات من في الفرق الثانية جميعا بلا استثناء.

مع أن المسألة ليست أن تكون محبّا لعبد الناصر أو كارها له، فقد رحل الرجل إلى ربه وأفضى إلى ما قدمه لوطنه، سيظل أعظم ما في عبد الناصر أنه اختار المقاومة بعد الهزيمة، ولم يستسلم وسعى لكي يصلح أخطاءه التي أفضت بنا إلى الهزيمة، لكن المسألة ليست أبدا متعلقة بشخص عبد الناصر وحياة أمي وأمك الغاليتين، المسألة أننا نفوت الفرصة تلو الفرصة للاستقرار على بديهية واحدة استقر عليها عقلاء العالم الذي تقدم، هي أنه لن يوجد شعار أيّا كان نبله ولا شخص أيّا كانت عظمته يقدر على إنقاذ أمة بأكملها، فما بالك لو كانت أمة غارقة في أم المشاكل والخيبات والهزائم؟ المؤسف أننا لمسنا هذه البديهية بأيدينا في الحادي عشر من فبراير عندما أطحنا بمبارك من على عرشه، ومنذ تلك اللحظة التي بادر فيها رماة الإخوان إلى جمع الغنائم السياسية وفارقوا الميدان الذي انضموا له متأخرين، ونحن ننتقل من هزيمة إلى أخرى، فهل نتعلم قبل أن

تأتي ذكرى خمسة يونيو القادمة أن العودة إلى حدود حداشر فبراير هي وحدها المنقذ؟ يبدو ذلك الآن خيالا جامحا وخيارا مستحيلا، لكنني أوقن أننا ذاهبون إليه حتما ولا محالة، سواء بالدم أو بالعطش أو بهما معا.

أو كما قال عبد الحليم حافظ: «طويلة لسه طويلة».

يونيو ٢٠١٣

الشاكم بأمر الله!

لم يعد غريبا في ظل التشوش الذهني الذي يعصف بنا من كل اتجاه أن تجد كل يوم مواطنين شرفاء يتباهون بعظمة وعبقرية الشعب المصري وتفرده عن بقية شعوب الأرض، قبل أن يرددوا بعدها مباشرة عبارات من نوعية «بس شعبنا محتاج حد يشكمه.. شعبنا كده مايجيش غير بالعين الحمرا، وماينفعش تسيب له الحبل على الغارب»، دون أن يبدو لهم أن هناك تناقضا بين فكرة وجود شعب عظيم ورائع وعبقري، وفكرة أن نفس ذات هذا الشعب محتاج للشكم والعين الحمراء والضرب بمقامع من حديد.

ليس غريبا أن يؤمن بهذه الفكرة الفاسدة رجال الدولة القمعية الذين كانت الثورة «بالنسبة لهم نكسة»، فهم يعتبرون أن مصر كانت في غربة وشاء الله أن يرد غربتها بعد ٢٦ يوليو لتعود لهم ولكن هذه المرة إلى الأبد كما يظنون، بل وليس غريبا أن يصدقها المواطن العادي نفسه الذي يؤمن أنه عظيم وعبقري لكن ما يمنعه من جني ثمار ذلك انتشار المخربين الذين لن يقضي عليهم إلا شاكم حاسم حازم، وهو مستعد لأن يحارب الجميع من أجل مجيء هذا الشاكم في أسرع وقت، وهي بالنسبة إليه حرب شريفة، لأنه لا يخوضها من

أجل ثروة يصيبها أو سلطة ينكحها، وإنما من أجل مجيء حاكم يوفر له الحد الأدنى من احتياجاته، خاصة أنه لم يعد يجد حتى الفتات الذي كانت تلقيه له دولة مبارك، هو لن يصغي إليك إذا حدثته عن حقوقه الكاملة التي يمكن أن يحصل عليها لو حققت الثورة مطالبها، لأنه عندما حلم عقب قيام الثورة بأنه سيحصل على كامل حقوقه فقد حتى الفتات الذي كان يحصل عليه، لا تضيع وقتك في تبصيره بخطورة الاستسهال، ولا في تذكيره بأن مبارك وابنه كانا ينويان أصلا خصخصة ذلك الفتات وإجباره على قبول ذلك بقوة الشكم، عندما ستعيش ظروفه كاملة فقط ستفهم لماذا يفرط في حقوقه، ولماذا هو مستعد لأن يطبق في زمارة رقبتك؛ لأنه يتخيل أنك برفضك وشغبك تعرقل مجيء الشاكم بأمر الله الذي سيحل كل مشاكله.

الغريب والمريب والمحزن والمقرف أنك تجد من بين مروجي وهم «الشاكم بأمر الله» أناسا من الذين شاركوا في الثورة حتى قبل أن تندلع بسنوات، وبعضهم يحملون آثار الشكم المباركية على أجسادهم وأرواحهم وأعمارهم، ومع أنهم يعلمون كيف راح هباء منثورا كل ما أنفقه مبارك على الشكم والقمع من مليارات كان يمكن أن تغير واقعنا إلى الأفضل لو أنفقها على التعليم والصحة، لكنهم يظنون أن مشكلة مبارك أنه كان يشكم دون وجود قاعدة جماهيرية تحبه وتسانده؛ لذلك لا ينبغي أن نضيع الآن فرصة وجود قائد عسكري يتمتع بجماهيرية عريضة ستساعده على أن يشكمنا لما فيه خير البلاد والعباد.

المشكلة أن كل من يعتقدون أن خلاصنا في مجيء الشاكم بأمر الله على اختلاف مشاربهم السالف ذكرها، لا يطرحون تصورا

تفصيليًا يمكن أن يقنعك بقدرة عبد الفتاح السيسي أو غيره على شكم البلاد وتحقيق الاستقرار اللازم لشبرقة الشعب بالمليارات القادمة من الشرق، على الأقل لكي تخنق بيديك كل ما تعرفه عن بديهيات ارتباط النمو الاقتصادي بالإصلاح السياسي وحرية التعبير والتعددية السياسية الحقيقية وضمان تداول السلطة، أقصى ما يقدمه هؤلاء أن يحدثوك عن عبقرية التجربة الروسية وعظمة التجربة الكازاخستانية وحلاوة التجربة الفنزويلية وفرادة التجربة الصينية «مالها الصين وهي الصين وحشة؟».

خلال الفترة القادمة لن تجد تجربة على وجه الأرض تم الجمع فيها بين النمو الاقتصادي ومرمطة الحريات العامة إلا وسيتم استدعاؤها وتزيينها للناس دعما لمجيء الشاكم بأمر الله، بالطبع لن تسمع من هؤلاء الذين بدأ صوتهم يعلو في البرامج والصحف بالترويج للنموذج الروسي أي كلام عن حقيقة الأزمة الاقتصادية التي باتت تهدد روسيا ولا عن فشل تجربة بوتين في تحقيق وعده برفع معدلات النمو، ولا عن الفقراء الذين سحقتهم سياساته ولا عن طبقات الحرامية التي أثرت بفضله على حساب الشعب، كل هذا ليس مهمّا، المهم أن الله رزقنا الآن ببوتين، أما ميدفيديف فمقدور عليه وألف من يتمنى لعب دوره، يبقى أن يختار بوتين بتاعنا الـ«ميدفيديف» بتاعه، والله الموفق والمستعان.

بالنسبة إلى هؤلاء، ليس مستحبًا أن تتحدث الآن بصوت عالٍ عن تجارب البرازيل وتركيا وتشيلي والأرجنتين وجنوب إفريقيا والهند وغيرها من الدول التي تغير حالها إلى الأفضل بفضل الديمقراطية وتداول السلطة، ولا أن تقول إنه برغم كل ما تعانيه هذه الدول

من انفجارات اجتماعية وتحديات اقتصادية وأزمات سياسية فإنها لا زالت مصرة على الاستمرار في مسار التحول الديمقراطي؛ لسبب بسيط هو أن البشرية لم تعرف حتى الآن مسارا أكثر عملية وقابلية للتطبيق غيره، وحتى عندما طمع بعض قادة هذه الدول ورغب في تحويل الديمقراطية إلى «صندوقراطية» ـ على حد التعبير العبقري الذي صكه الكاتب الرائع عمرو عزت ـ لكي يغيروا قواعد اللعبة الديمقراطية لتصب في مصلحتهم وحدهم، تمكنت حركة الشارع الغاضبة من تبديد أو تهديد أطماعهم وفرضت عليهم أن يغيروا طريقتهم إما عن اقتناع وإما حتى بحكم الضرورة، وقد كان المفروض أن يكون هذا هو نفس الدرس الذي سيلقنه الشعب المصري لحمقى الإخوان الذين صعدوا إلى السلطة على أكتاف الثورة، وخانوا جماهيرها بمجرد أن ظنوا أنهم تمكنوا من السلطة؛ ولذلك كان المطلب الرئيسي للملايين المتمردة على مرسي وجماعته هو إجراء انتخابات رئاسية مبكرة، وهو المطلب الذي تم اختطافه ليتم وضع خارطة طريق جرى تصميمها لتقودنا إلى أن يصعد على سطح الكرسي «شاكم» جديد ثم يسحب السلم لكي لا يصعد عليه إلا عضو جديد في رابطة الشاكمين بأمر الله.

قد تسألني: طيب، ماذا لو كان الشكم حلّا مؤقتا ينقذنا من الدوامة التي نتخبط فيها، ويضع أقدامنا على أول الطريق الذي يوصلنا بعد ذلك إلى الديمقراطية الحقيقية؟ يبدو سؤالك وجيها ومنطقيًا، وسأرد عليه بسؤال قد لا تراه وجيها لكنك لا يمكن أن تراه غير منطقي هو: «من قال لك إن الشكم ممكن أصلا؟».

محمد مرسي كان يتمنى أيضا أن يكون شاكما بأمر الله، لكن

معدل ذكائه لم يخدمه في قراءة الواقع المحيط به، لعلك تذكر اللحظة التي تصرف فيها كأن له ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحته، وقال قولته الشهيرة: «وفيها إيه يعني لما شوية ناس تموت عشان البلد تمشي؟»، دون أن يدري وقتها أن الله سيبتليه هو ومن صفقوا له بمن يحول تلك المقولة إلى واقع مر يموت فيه هو وأنصاره ويفقدون حرياتهم وحقوقهم على أيدي أناس تختلف مشاربهم وأفكارهم ولا يجمعهم سوى مبدأ وحيد هو: «وفيها إيه لما شوية ناس تموت عشان البلد تمشي؟».

كثير من أنصار مرسي يجاهرون الآن بأن سر وكسته كانت أنه لم يشكم معارضيه بما فيه الكفاية، وهو نفس ما يعتقده الذين ينهالون سبًا ولعنا على حكومة حازم الببلاوي التي يرون أنها لا تشكم الإخوان وأنصارهم وطابورهم الخامس بما فيه الكفاية؛ ولذلك يملئون الدنيا صراخا لاستعجال اليوم الذي يحكم فيه الفريق عبد الفتاح السيسي البلد «رسمي فهمي نظمي» ليتمكن من شكم الأحوال المنفلتة وإنهاء مناخ الترقب المدمر للأعصاب، وبالطبع لن تبخل عليه كل أجهزة القمع التي استعادت لياقتها الكاملة، وربما لو خلصها السيسي من شوكة «الجناح الديمقراطي» المحشورة في زور الوطن لأعادت أمجاد الستينيات في لمح البصر، خاصة أنه لم يعد ينقصنا شيء الآن، فلدينا قائد ملهم وإعلام «مايقولش لأ» ومثقفون مضبوطون على وضع التبرير، والأهم من كل ذلك «شعب فرحان تحت الراية المنصورة».

لكن كيف سيشكم الفريق السيسي البلد إذا حكمها سواء بنفسه أو من خلال «ميدفيديف» محلي الصنع؟ هل سنستورد من روسيا

السلاح والقمح والقمع بكاتم الصوت أيضا؟ هل سيصبح خيارنا الديمقراطي منحصرا بين أن تؤيد السيسي بجنون أو تؤيده بشدة أو تؤيده سادة؟ هل ستنتج ماكينة ترزية القوانين التي تم تزييت تروسها في وزارة العدل المزيد من التشريعات لتجريم من يجرؤ على انتقاد أكبر رأس في البلد، فنعود إلى عصر الاستئساد على عبيد المأمور دون المأمور؟ وإذا فكرت الدولة أن تقوم بتفعيل مشروعات القوانين التي تحاول سد ثغرات الشكم المباركي، بملاحقة كل من يخرج على النص سواء في الفضاء الافتراضي أو جرافيتي الحوائط أو مدرجات الملاعب بل وحتى في شاشات المحمول، فهل ستكفي مليارات الخليج لتأمين الموارد اللازمة لتمويل حربها اليومية مع جيل الشباب الذي لم تكتفِ الدولة بقتل أحلامه، بل تريد أيضا قتل رغبته في السخرية والرفض بل وحتى الصراخ بأسماء رفاقه الذين ماتوا في عز الشباب ليبقى عواجيز الدولة في عز السيطرة؟ وإذا اكتشفت دولة اللواءات أنها لن تستطيع أداء دور الشاكم القوي الذي يعيش على المعونات ويطلب رضا المجتمع الدولي «في بروجرام واحد»، فكيف سيكون منظرها أمام أنصارها الذين أدمنوا طعم الدم واستحلوا القمع ووجدوا فيه حلّا لكل مشاكلهم مع كل صاحب رأي مخالف؟ ومن الذي سيدفع في النهاية ثمن العنف غير المشبع الذي تغذيه الدولة وإعلامها، وهي تظن أنها ستبقى آمنة من عواقب انفجاره المروعة أجارنا الله منها.

لعل التاريخ الحديث لم يعرف حاكما تمكن من شكم شعبه مثلما فعل الدكتاتور الألباني أنور خوجة، لك أن تعرف أنه قام ببناء حوالي مليون برج مراقبة عسكري بامتداد حدود ألبانيا، في وقت كان يمكن

بتكلفة بناء برجين للمراقبة أن تبني شقة سكنية بها غرفتا نوم، وكان يصل بك الأمر إلى دخول السجن إذا قمت بتوجيه هوائي التلفزيون تجاه إيطاليا، وكما تقول الكاتبة الكرواتية سلافينكا دراكيوليتش في كتابها البديع «المقهى الأوروبي» الذي درست فيه أحوال دول أوروبا الشرقية عقب انهيار أنظمتها الدكتاتورية، فقد ساعدت تلك الأبراج أنور خوجة على البقاء، لكنها لم تساعده على الاستمرار مسيطرا إلى الأبد كما كان يظن، وكان الثمن الذي دفعه البلد غاليا جدًا عندما جاءت لحظة الانفجار في عام ١٩٩١، فقد قام الشعب الذي ظل يسبح بحمد أنور خوجة سنين طويلة بتدمير كل شيء: المحال والمستشفيات والمصانع والمدارس بل وحتى المخابز، ولم يحدث في أوروبا الشرقية كلها ذلك القدر من العنف المدمر الراغب في محو الماضي ولو حتى بتدمير الذات.

للأمانة، لا أحد من كبارات البلد الآن يعتقد في إمكانية تكرار سيناريو الحديد والنار الذي قدم خوجة والقذافي و«الأسدان» وصدام وتشاوشيسكو نسخا متنوعة البشاعة منه، برغم أن الكثير من أنصارهم في الشارع يظنون أنه لا توجد مشكلة في إعادة تنفيذ تلك النسخ بإخراج مصري خاص «طالما الشعب مبسوط وعشان البلد تمشي»، لكن سلطة اللواءات ومواليسها الجدد يعلمون صعوبة تحقيق ذلك في ظل العيون العالمية المفتوحة على اتساعها لمراقبة ما يحدث في مصر، ليس حبًا في الديمقراطية بل خوفا من تدهور أوضاع مصر بشكل يهز استقرارالمنطقة كلها، ولأن من في السلطة يدركون أن ذلك ما يهم الدول الكبرى حقًا؛ لذلك يعملون بكل همة ونشاط على إعادة ماكينات إنتاج الفتات للعمل بكل طاقتها

لإظهار كرامات التفويض للشعب في أسرع وقت؛ لكي يمنح بركاته للنظام السياسي الجديد الذي يجري تهجينه الآن من حاصل ضرب تجارب روسيا وإيران والصين وكازاخستان وفنزويلا وكوبا وأي تجربة «معفنة» تساعدنا على أن يكون لدينا حاكم شاكم وطبقة لواءات مسيطرة وطبقة مدنيين متعاونة وطبقة شباب مدجنة و«ملايين الشعب تدق الكعب» وتعاود ما وجدت عليه آباءها وهو المشي جنب الحيط.

تبدو كل عناصر الطبخة مكتملة نظريًا، باستثناء عملية تدجين الشباب الذي تظن سلطة اللواءات أن حل مشكلتها معه يكمن في تصفية جيل يناير وتصعيد جيل يونيو، لكن الأيام ستكشف لها أن مشكلتها مع شباب مصر أعمق وأعوص وأعقد من مشكلتها مع أسماء بعينها أو حركات بذاتها، فهي مسألة صراع حياة أو موت بين الماضي والمستقبل، الآن يظن الماضي المنتشي أنه يمكن أن يستمر إلى الأبد دون حتى أن يقوم بعمل «نيو لوك» يناسب القرن الحادي والعشرين، وربما يفكر في عمله قريبا لو لزم الأمر، لكن، وبرغم أن المستقبل الآن مرتبك ومشتت ومجهد وحائر، فإنه سينتصر حتما، ليس بفضل ذكائه؛ بل بفضل غباء الماضي الذي سيعجل بانتهاء عمره الافتراضي.

«وبكره تشوفوا مصر».. حين يتعس الشاكم والمشكوم.

نوفمبر ٢٠١٣

خلي بالك من لغاليغك!

في أيام خنيقة كهذه يجبرني حبر المطابع الذي تقاسمناه سويّا طيلة السنين الماضية، أن أنصحك صادقا مخلصا بأن تدأب على تذكير نفسك آناء الليل وأطراف النهار بأن البؤس العقلي وباء مثل الإنفلونزا الآسيوية والسعال الديكي والطاعون البقري، إذا حل بوطن فقد يحل بأي من أبنائه حتى لو كان من الذين يتقدمون صفوف محاربة البائسين عقليّا، فيضطر عندها لإخفاء الحقيقة المرة عن الجميع؛ حقيقة أنه يحارب البؤس العقلي وهو مصابٌ به.

ما العمل إذن؟ حاشا لله أن أدعي لنفسي أن أعراض التنمية البشرية ظهرت عليَّ فجأة، فليس ما أقوله لك الآن سوى محاولة لأن أعطيك وصفتي الخاصة التي وجدتها فعالة في أغلب أيام الأسبوع باستثناء يوم الثلاثاء لأسباب تتعلق بموقفي التاريخي من هذا اليوم، والذي يتلخص في عدم فهمي لفكرته ومغزى وجوده.

وصفتي لمكافحة الإصابة بوباء البؤس العقلي هي ببساطة: أن تعمل أولا على تقوية مراكز الملاحظة والتفكير، و«توطية» مراكز الرغبة في تغيير آراء الآخرين إلى أدنى درجة ممكنة. ستكون محظوظا

إذا أدركت مبكرا أن الحوار مع مصاب بالهستيريا الفكرية أو السياسية عبث لن ينتج عنه في أحسن الأحوال إلا إصابتكما معا بالإرهاق، إن لم يؤدِّ إلى نتائج أفدح كأن تلتقط منه عدوى الهستيريا، وهي في رأيي المتواضع أشد الأمراض قابلية للعدوى.

صدقني ـ كما يقول الفرنجة ـ أنا الآن جادّ كنوبة قلبية عافاك الله، ولذلك تعال نفكر سويّا في الأمر بروية: هل خطر في بالك لماذا يقومون بعزل المصابين بأي وباء بيولوجي خطير إذا تفشى في بلد ما برغم ما في ذلك العزل من مرارة تصيب المعزول والمعزول عنه؟ ينبغي أن يكون الحال كذلك مع الهستيريا الفكرية والبؤس العقلي فهما أيضا وباءان فتاكان لا حل معهما إلا أن تنعزل عن المصابين بهما؛ لأن محاولة التطوع بالاشتباك الفكري مع المصابين بهما لتغيير آرائهم في الحياة والكون ليس سوى «عَبَط رسمي»، يشبه تماما فكرة أن تكون واقفا إلى جوار شخص رمى نفسه للتو من الدور «التمنتاشر» وبات ينتظر الموت أو الإسعاف أيهما أقرب، فإذا بك تقترب منه وتذكره بقول إيليا أبو ماضي: «أيها الشاكي وما بك داء/ كن جميلا ترَ الوجود جميلا»، وهي أيّا كانت دوافعها الطيبة لن تجني منها إلا أن تكون سببا في آخر سيئة يكسبها المنتحر؛ لأنه حتما ولزما سيذكر الفاضلة أمك بكل سوء وستجيء لها بشتيمة لا تستحقها حتى لو كانت لم تفلح في تربيتك على أبسط حقائق الحياة «بص لمستقبلك».

هل هذه دعوة لإعلان الهزيمة والتخلي ساعة زحف وباء البؤس العقلي على الوطن؟ أعلم أنك ستذكرني بالأمر الشرعي بعدم الفرار من الأوبئة؛ لأن الإنسان سيفر حينها من قدر الله إلى قدر الله، أنا

على العكس أدعوك للمقاومة لكن أنصحك فقط باختيار السلاح المناسب، وهو في ظني ليس سوى سلاح السخرية، فهو سلاح إستراتيجي وفعال ورخيص التكلفة أيضا، لكن من شروط فعاليته ألا تدع سيف السخرية يفارق يدك أبدا، وأن تضرب به في كل اتجاه، وتضرب به الجميع، بمن فيهم نفسك؛ لأن استخدام سيف السخرية في ضرب أعدائك فقط يفقده فاعليته، ويصيبك مع الزمن بنوع نادر من البؤس العقلي يجعلك تتصور أنك أرقى حالا وأفضل مآلا ممن تسخر منهم ليل نهار، وأنك أصبحت تمتلك الحقيقة المطلقة التي حاربتهم أصلا لأنهم يدعون امتلاكها، وبذلك تكون قد تحولت دون أن تدري إلى نسخة مطابقة وربما أكثر تشوها ممن تعاديهم، وهو ما يثبت مع الزمن صحة قول العم اللعين نيتشه الذي حذر مرارا وتكرارا كل من يحارب الوحوش من أن يتحول مع الوقت إلى وحش.

كل هذا كان أولا، أما ثانيا فعليك يا أخي الكريم أن تحرص على عدم قطع علاقتك اليومية والدائمة باشتهاء الطيبات؛ لأن ذلك سبيلك الوحيد إلى تذكر أنك لا زلت حيّا، حتى وإن كنت حيّا لا تُرزق بكل ما تتمناه أو بأي مما تتمناه. صدقني عندما تفقد قدرتك على الاشتهاء لن ينفعك في المستقبل القريب ببصلة أن صوتك كان عاليا طول الوقت، أو أن موقفك كان دائما سليما أو أنك كنت تحارب على الدوام المعركة الصح، فما فائدة أن ينتصر الفريق الذي تحارب في صفوفه إذا اكتشفت ـ في نهاية المطاف ـ أنك تحولت إلى جثة؟ لذلك أرجو أن تتذكر دائما أن استمتاعك بالنصر، إن جاء النصر، يتوقف أصلا على بقائك حيّا تشتهي وتُشتهى، فلا خير في نصرٍ يأتيك وقد فقدت قدرتك على الضحك والطرب والتذوق

والنشوة، وكل هذه أمور تفقد كفاءتك فيها مع الخمول والانقطاع، فالعلم بالتعلم، والشهوة بالاشتهاء، والنشوة بالتنشّي، والعظمة لله والتناكة لقوم آخرين أنت تعلمهم.

هذا وأوصيك ونفسي ثالثا وأخيرا بالحرص على تناول المكسرات خصوصا عين الجمل ليس لأنها تقوي الذاكرة فقط؛ بل لأنها تقوي أيضا مناعة الخصيتين، وقد «اختصصتهما» دون غيرهما من أعضاء الجسم؛ لأن آلامهما هي أشد وأقسى وأخطر ما يتعرض له الفرد في مجتمعنا المعاصر سواء كان ذكرا أو أنثى، ولا أدري لماذا يثير ذكرهما حفيظة بعض المحافظين المتحفظين برغم أن أحدا منهم لا يمكن أن يجادل في أهميتهما ودورهما في بقاء النوع البشري، أو أن يشكك علميّا في أن من يحافظ «عليهما» حتى النهاية سالمين غانمين سيبقى، ومن يفرط فيهما سيفنى وتفنى معه أفكاره وإن كانت نبيلة وأحلامه وإن كانت جميلة، ولعلك إن استهنت بما أقوله لك الآن تلجأ إلى مراجعة معلوماتك التشريحية سريعا، وعندها ستلاحظ أن حباية عين الجمل قبل «فقئها» تشبه الخصية وبعد فتحها تشبه المخ، فلعل ذلك ينبهك إلى أن تأخذ حذرك من تعريض نفسك لما يمكن أن يؤدي إلى فقع تلك المنطقة الحساسة الغالية؛ لأن ذلك سيؤدي حتما ولزما إلى «فتح البطن»، عافانا الله وإياكم من الفقع والفتح معا.

أو كما قال مولانا عادل إمام: «كل واحد يخلي باله من لغاليغه»، مشيها لغاليغه.

أكتوبر ٢٠١٣

وجهة نظر يهوذا!

... قولوا ما شئتم، أما أنا فلست نادما أبدا، بل إنني فخور بما فعلت، وسيأتي عليكم اليوم الذي تدركون فيه سفاهة الأقاويل التي تحدثت عن أكياس الذهب التي بعته بها؛ لتفهموا عندها أنني لم أفعل ما أغضبكم إلا من أجل مصلحة وطني.

العالم ليس مكانا تتحقق فيه الأحلام الوردية، وأورشليم ليست مدينة فاضلة، ولن توجد في هذه الحياة أصلا مدينة فاضلة؛ لذلك كان يجب أن يهدأ ولو رغما عنه؛ لكي يتحقق الاستقرار، بدلا من أن تشعل البلاد كلماته التي تلهب مشاعر المكبوتين وتهددنا بفوضى عارمة ندفع ثمنها غاليا.

بالطبع تألمت عندما رأيته ينزف على الصليب، لم أكن أحب أن يحدث له ذلك، لكنني توقفت سريعا عن لوم نفسي عندما تذكرت الحقيقة المرة التي لن تعترفوا بها أبدا: حقيقة أن إصراره على أن يحقق كل أحلامه هو الذي أودى به هناك، ولست أنا، فقد كان عليه أن يتحمل ثمن رفضه لكل نصائحي بألا يأخذ الأمور دائما بجدية، وألَّا يذهب إلى أبعد مدى في عدائه مع من يملكون القدرة على إيذائه.

كان فرحا بتحلُّق العامة من حوله، كان يا ولداه يظن أنهم سيقفون إلى جواره في مواجهته الحتمية مع من يفزعهم هجاؤه لاكتناز الأموال ودعوته للعطاء والبذل، لم يستجب لتحذيراتي له بأن يتوقف عن إشعال الجبهة الداخلية وزعزعة الاستقرار وتهييج الجماهير وإثارة مشاعر البسطاء، كان يرد مبتسما بأنه لا يفعل شيئا سوى أن يقول كلمته ويمضي، مع أنه كان يعلم أن كلماته كانت توقد النار في صدور المحرومين المتعطشين إلى استرداد ما يظنونه حقوقهم.

ستقول لي إنها حقوقهم بالفعل، فليكن، ما الذي استفاده إذن من تذكيرهم بها؟ هل كان يظن أن علية القوم ستقف مكتوفة الأيدي حين يدخل الهيكل ليقلب مناضد الصيارفة ويقول لهم: «مكتوب بيتي بيت الصلاة وأنتم تجعلونه مغارة لصوص»، أو عندما يردد خلفه الدهماء ـ الذين كان يسميهم ملح الأرض ـ أن دخول جمل في ثقب إبرة أيسر من دخول غني ملكوت السماء، أوحين يطلب من الأثرياء ألا يكنزوا كنوزا على الأرض بل في السماء حيث لا سوس ولا صدأ ولا لصوص؟ ألم يكن يدرك خطورة كلام مثل هذا على السلم الاجتماعي، حتى وإن كان يقوله بنبرة هادئة كان يظن أنها ستلين له القلوب الغليظة؟ ثم قل لي بعيدا عن كل هذا: أين ذهب الذين كانوا يطربون لحديثه عن العدل حين احتاج إليهم؟ ألم ترَ بعضهم وقد أشاح وجهه لكي لا يرى هول الفاجعة، بينما وقف بعضهم صامتا مذعنا لكي لا يدفع ثمن رفضه لما يجري، أما أغلبهم فقد شارك في التهليل والتصفيق

والمباركة والتأييد لما يجري بعد أن تأكد أنه لا يملك أصلا ما يقدمه له سوى موته؟

صدقني لا تحتاج إلى أن تكون نبيًا لكي تدرك أن الناس أوغاد، وأن الحياة أجمل من أن تضيعها على محاولة إصلاحهم أو تغيير أحوالهم بالنيابة عنهم، فليغيروها هم إن أرادوا، لماذا توجع قلبك وتضحي بحياتك من أجل من ألفوا العفن وأصبحوا لا يرون سواه بديلا؟ هاه؟ تبدو جميلة في فمك وأنت تلوكها عبارة «ما الذي يفيدك لو كسبت العالم وخسرت نفسك»، طيب، جرب أن تقولها وأنت ترى دماءك نازفة على الأرض دون أن يبكي عليك أحد، عندها فقط ستفهم وجهة نظري، وستدرك أنني جنبت وطني وشعبي فتنة لم تكن ستفضي إلى أي تغيير أو إصلاح.

لا أستطيع أن أنكر أنني كنت معجبا به، كان شابًا طاهرا مشرقا يقول كلاما جميلا يحرك النفوس، كنت أحبه مثلما كان يحبه الكثيرون، لكنه فهم محبتنا خطأ، وتصور أنه سيقدر على أن يفرض حلمه بعالمٍ يكون من حق الفقير أن ينازع الغني ثروته، فيمنحها له الغني عن طِيب خاطر؛ عالم يكف الناس عن الاستمتاع بشهواتهم في التسلط والسيطرة ليأملوا في ملكوت الله؛ عالم لا تمتلك فيه حتى متعة أن ترجم عاهرة بحجر قبل أن تفكر في خطاياك قبل ذلك، هل كان يظن أنه سيجد عالما مثل هذا إلا في السماء؟ إذن، فلتشكروني لأنني عجلت بإرساله إليها، فليهنأ بعالمه هناك، وليترك لنا عالمنا نعيشه كما ألِفناه قبل أن يسممه بأفكاره التي لم تعد بعدها حياتنا هانئة كما كانت.

صدقني، كان لا بد أن نقتله لكي لا نكون مثل بابل وأنطاكية، كان لا بد أن نقتله لكي تحيا أورشليم.

(مهداة إلى مينا دانيال وعماد عفت وطارق الأقطش وشهداء الثورة المصرية).

أكتوبر ٢٠١٤